شاؤل

في زحام المدينه

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

الى مجلة الاديب الزاهرة مع فائق التقدير
المؤلف
انور شاؤل
٢٠/١٠/١٩٥٢
الصالحية غيدا

892.78
Sh542fA
c.1

جزاء الخيانة

قصص

تأليف

انور شاؤل

الصور بريشة الرسام يحيى جواد

شركة التجارة والطباعة المحدودة

In the Turmoil of the City

Short Stories

by

ANWAR SHAOOL

All rights reserved

Printed by THE TRADING & PRINTING CO. LTD.
Salhiyah — Baghdad.

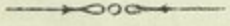

تصدير

في عام ١٩٣٠ نشرت « حصادي الاول » الذى ضمّ احدى وثلاثين قصة كتبت معظمها وأنا بعد أتلقى الدراسة الاعدادية .

ومنذ ذلك التأريخ أصبح هـذا الاثر البدائي من مواد أغلب الدراسات والبحوث التى كتبت عن تطور القصة الحديثة فى العراق .

واختلفت نظرات الكتاب والنقاد الى « حصادي الاول » .

وقال بعضهم عني :

- ثاني اثنين مهدا لكتابة القصة الحديثة فى العراق .(١)
- الرائد الثاني الداعي الى نشر القصة قراءة وكتابة فى العراق .(٢)
- يروي بلغة جيدة غالباً ولكنها غير مؤثرة ، حكايات بسيطة أو غريبة لا تحمل معنى قوياً أو تدل على اتجاه هام .(٣)
- قصاص بارع القصص ، حسن الاسلوب ، حسن الحبك . قد يعرض فى الجملة الواحدة ما لا يستطيع غيره ان يعرضه فى جمل .(٤)

---

(١) الاستاذ احمد حسن الزيات فى مجلته « الرسالة » وهو يقدم احدى قصص المؤلف .

(٢) الاستاذ جعفر الخليلي فى حديث له من محطة الشرق الادنى .

(٣) الدكتور سهيل ادريس فى بحث « القصة العراقية الحديثة » المنشور فى مجلته « الآداب » .

(٤) الدكتور جميل سعيد فى رسالته « نظرات فى التيارات الادبية الحديثة فى العراق » من منشورات معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية .

وقال آخرون انني كتبت القصة ولكنني ما لبثت أن هجرتها وشغلت عنها بالصحافة فالمحاماة فالتجارة فأنا ابن القصة البار بالامس والعاق اليوم .

وبرغم أن أثري الاول كان أثراً استطلاعياً لتلميذ متطلع فانني لا أتوانى عن تحمل تبعته الادبية خف عبء هذه التبعة أم ثقل .

واليوم أقدم الى المعنيين بالقصة ، كتّاباً وقراءاً ، « في زحام المدينة » عسى أن يجدوا فيه ما لم يجدوه في « حصادي الاول » فان خيبت ظنهم فليشفع بي لديهم انني قدمت ما وسعني تقديمه .

انور شاؤل

خريف ١٩٥٥

الدّمية المهشّمة

واخيرا نزل الزوج ، على مضض ، عند رأي زوجته فى وجوب احياء حفلة مختصرة احتفاء بالذكرى الخامسة والعشرين لزواجهما . ان موضوع هذه الحفلة كان مدار نقاش طويل بدأ منذ أكثر من شهرين . أيحتفلان بيوبيلهما الفضي أم لا يحتفلان ؟ ان « سعيداً » لم يكن ليرى لزوماً لذلك بينما زوجته « ناهدة » كانت ترى خلاف ذلك . فان ذكرى جميلة كهذه، ذكرى مرحلة حاسمة من حياتهما لهي مناسبة ذات شأن لا بد من الاحتفال بها . ومن يدري ان الفرصة ربما لا تتاح ثانية للاحتفال بنظير لها فى ما بقي من حياتهما ! ...

وعندما اتفقا على وجوب احياء حفلة يوبيلهما الفضي نشب بينهما خلاف جديد : هل يقصران الحفلة على ولديهما وابنتهما والمقربين من أسرتيهما أم هل يدعوان اليها جماعة من الاصدقاء ؟ ومن هم هؤلاء الاصدقاء الذين تجب دعوتهم الى هذه الحفلة ؟

كانت آراؤهما متضاربة فى كل وجه من وجوه هذا الموضوع وقد امتد الخلاف حتى الى بعض النقاط التافهة مما له مساس بهذه الحفلة . ماذا ترتدي ؟ ماذا يلبس هو ؟ ما هى ألوان الطعام ؟

كانت معركة حامية الوطيس لم يخب أوارها الا قبل موعد الحفلة بأربع وعشرين ساعة فقط ، عندما قال الزوج لزوجته وهو يرى الدموع تترقرق فى عينيها :

ـ أنا تحت أمرك يا « ناهدة » لا معنى لهذه الدموع .. ان غداً عيدنا السعيد ..

فمسحت الزوجة دموعها وانبسطت أساريرها عن ابتسامة حلوة . وعلت من الزوجين قهقهة متداخلة اعتادا أن يبعثاها أثر كل خلاف قوي لا يلبث أن ينتهي بالتفاهم المحبب .

وكانت حفلة رائعة ، طفحت فيها الوجوه بالبشر والقلوب بالانس وكان « سعيد » و « ناهدة » كوكبي هذا الفلك الصغير يضفيان على من حواليهما من ألق المحبة والود ما يأخذ بالمشاعر ويسحر الالباب . وكانت ساعات من السمر الممتع فى جو عائلي عطر امتدت الى ما بعد منتصف الليل . اذ ذاك

أخذ الضيوف فى الاستئذان حتى اذا دقت الساعة دقتين لم يبق فى البهو سوى « سعيد » و « ناهدة » . وتلفت « سعيد » ليتأكد ان أولادهما قد أووا الى أفرشتهم ثم دنا من « ناهدة » وطوقها بذراعيه مسنداً رأسه الى رأسها وظل هكذا لحظة راح بعدها طابعاً على ثغرها قبلته الطويلة المعهودة :

ـ لم تسأليني يا « ناهد » عن هدية هذا العيد ..

ـ أتظنني نسيتها يا « سعيد » ؟ انك اذن لمغفل عظيم .. هيا قدم هديتك والاّ أيقظت الجيران بصراخي . !

فوضع « سعيد » سبابته على فمه مشيراً عليها بالسكوت وقـال :

ـ ان الهدية لأعظم مما تنتظرين . هدية من نوع جديد .

ـ «ماسة أغا خان» أم « زمردة راجا كشمير » ؟ .. هات ..

ـ أعتقد انها أهم من هذه وتلك .

فقالت الزوجة بدعابتها الساخرة :

ـ اذن هى « الباخرة كوين ماري » ..

هنا أخذ الزوج وضعاً جدياً وقال :

ـ انني قررت يا « ناهدة » أن أهدي اليك كل ما أملك من أنانية وغرور وعناد . قررت ألاّ أخالف لك بعـد اليوم طلباً أو رأياً أو أمراً ..

ـ ماذا تقول ؟ أتعني انك لن تثير غضبي وانزعاجي فى أي أمر؟ حقاً انها لهدية فوق ما يتصوره عقلي ... أنت «سعيد» تتنازل عن أنانيتك الصارخة ؟ ...

ـ أجل يا « ناهدة » سوف أعمل المستحيل . ان ذلك ليس بالامر الهيّن ولكنني سأتطبع عليه مهمـا كلفني الامر من جهد ووقت ...

وهنا تملك الزوجة شعور غريب لم تأنس مثله طيلة حياتها الماضية ، وخيل اليها أنها امتلكت شيئاً أعظم شأناً من « ماسة أغا خان » و« زمردة راجا كشمير » و « الباخرة كوين ماري » ، فطوّقت زوجها الحنون بذراعيها وهى تقول :

ـ وأنا أعاهدك يا سعيد أمام الله على أن أتنازل بدوري عن أنانيتي وغروري وعنادي : .. ثم أوى الزوجان الى فراشهما لينامان نوماً هادئاً حافلاً بالاحلام الجميلة .

ومرّت الايام والاسابيع والاشهر وكلا الزوجين بار بوعده ، مقيم على عهده . كلاهما كان يبذل قصارى جهده لارضاء الآخر والتنازل له عن وجهة نظره . كانت هذه التضحية من الزوجين بعيدة الاثر ، وكان تقارب مزاجيهما صعب المنال . ولكنهما بالمرانة والمثابرة والاصرار ، تعوّدا أن يلتقيا على صعيد واحد وفى نقطة واحدة . وزادتهما الايام تقارباً وامتزاجاً حتى اذا انقضى عامان كاملان على عهدهما الجديد بالحياة الوادعة الهادئة المندمجة شعرا بأن شيئاً عجيباً حدث لهما .. ! شيئاً لم يحسا به أول الامر ولكنهما اليوم يشعران به أيما شعور !

وجد الزوجان نفسيهما فى حالة غريبة من الهدوء

والركود ، انهما اليوم أصبحا وكأنهما فى حديقة مزهرة ولكن لا عطر لزهورها ولا تغريد لطيورها . انهما اليوم يتطلعان الى الافق فلا يبصران تلك الالوان الزاهية التى طالما تمتعا بها .

شعرا بالفراغ الذى أحدثه هذا الاندماج المكتسب . أين تلك العواصف التى كانا ينعمان بعدها بالهدوء ؟ أين تلك الدموع التى كانت الابتسامات تشرق من خلالها ؟ أين تلك المجادلات والمماحكات التى كان يعقبها التودد والقبلات الطويلة ؟

لم يبق شىء من كل هذا ، ان حياتهما اليوم تدور دوراناً راتباً . انهما فقدا لذة الصفاء بعد الجفاء ومتعة الوئام بعد الخصام . ويا ما أوحش حياة كهذه التى يحيانها اليوم .. !

وكما يتطلع الطفل الى بقايا دميته المهشمة كان « سعيد » و « ناهدة » يتطلعان بين حين وآخر الى ذكريات ماضي حياتهما الحافلة ! .

الحمال الصغير

تملكني في الايام الاخيرة شعور بأن العمل المرهق المتواصل حرمني نعم الرياضة فلم أحظ منها حتى بالبسيط الذي يدخل في عداد الحد الادنى لمستلزمات الكيان البشرى . وزاد حالتي هذه تعقيداً انني أسكن داراً بجوار محل عملي ، فكان جلّ رياضتي اليومية انني أقطع الامتار العشرة التى تفصل بين مسكني ومحل العمل مرات أربعاً كل يوم .

وأثارت هذه الحياة الراتبة وهذا الحرمان من الرياضة جدلاً عائلياً طال فيه الاخذ والرد حتى استقر الرأى على أن أحاول تعديل هذا الطراز من الحياة ولو على نطاق ضيق . ذلك بأن أقصد صباح كل يوم سوقاً تبعد عن دارنا عشر دقائق لشراء بعض الحوائج المنزلية كالفواكه والخضر . ان تدبيراً كهذا سيساعدني حتماً على استنشاق هواء الصباح البليل ، ويغير أمامي الصور المألوفة وأخيراً ـ وهو الاهم ـ ييسر لي رياضة يومية هادئة مفيدة .

لم أتذوق هـذا الاقتراح ولم أعمـل به ، لا لكوني لم أؤمن بفائدته انما لعدم ألفتي ارتياد حوانيت البقالة أو ارتياحي لشراء لوازم البيت المعاشـية . انني لم اعتد أو أحـاول ذلك منذ الصغر .

ومرت أيام ثلاثة فقط .. وفى اليوم الرابـع أثيرت فى البيت ضجة ، أغلب ظنى انهـا كانت مصطنعة ، وخلاصة ما وقع اننا لم نجد على مائدة الطعام اية فاكهة عند الغداء . فقـام أولادي للأمر وقعدوا ، وفتحت محضر تحقيق عائلي للفور فاتضح أن الكل قرروا الاضراب عن القيام بمهمة شراء الفواكه ، وان الحل الوحيد ينحصر فى قرار خاطف خلاصته « ان عليّ شراء الفواكه بنفسي .. أو لا فواكه بعد اليوم ! .. ورضخت للحكم ولم أحاول اعتراضاً أو تمييزاً ..!

* * *

استيقظت قبل شروق الشمس وقبل أى شـخص آخر فى البيت . وتركت الدار فى حين لم يزل من فيها ينعم فى نوم الفجر الهانىء .. وأخذت طريقى الى السوق . وكم لذ لي أن استنشق ، وأنا أوسع الخطى ، نسـائم الربيع العطرة واشـاهد بغداد تستيقظ وتنشـط للعمل . فالعمال والباعة

وصغار الكسبة سبقوني الى حومة العمل . وشعرت فى نفسي، وأنا فى منتصف الطريق الى سوق البقالين ، برغبة ملحة تدعوني الى أن اتباطأ فى سيري ، ليتسنى لي التمتع بأوفر قسط من صور وألوان تكاد تكون غريبة عليّ .

وقبل أن أصل الى البقال اقترب مني صبي يحمل بيده علاقة وسألني :

ـ عمي .. حمال ..

قال ذلك وهو يقضم بأسنانه قطعة صمون يابسة ويستر بعلاقته ثوبه الممزق . وبرغم ما كان يبدو على هذا الصبي من شحوب وهزال فقد حاول أن يظهر بمظهر الحمال النشيط الذى فى امكانه أن يحمل ارطالاً من الحوائج .

لم يكن الطفل ليتجاوز العاشرة ، ان صح تخميني ، فقلت لنفسي ان الاطفال أمثاله هم الآن محمولون على أجنحة الاحلام فى انتظار من يوقظهم للفطور والذهاب الى المدرسة.. ألا ما أقسى القدر على هذا الطفل وأمثال هذا الطفل ..

وأشرت على الحمال الصغير بأن يتبعني فسار وحاول أن يبرهن لي على نشاطه بأن أخذ يسرع خطاه الى حد القفز

والهرولة أحياناً .. كما راح يبدي استعداده ليكون مرشداً الى جانب مهمة الحمالة التى يتعهدها .

وسار وسرت . واذا بقطعة نقود من فئة العشرة فلوس تسقط من جيب الصغير . وكأن قلبه قد سقط معها ، فرمى بنفسه على القطعة يلتقطها وهو يصيح بذعر :

ـ عمي الله يرحم والديك .. ما أسويها بعد .. والله ما أسويها . عمي ما أسويها ..

وراح يركض متلفتاً مولولا : « ما أسويها بعد » .

لم أفهم شيئاً من هذه الحادثة التافهة التى سرعان ما تطورت الى ملاحقة للطفل اشترك فيها بعض المارة وكناسي الطرق انضم اليهم حارسان أهليان من حراس الهزيع الاخير من الليل ونائب عريف شرطة صادف مروره آنذاك .

ظل الطفل يركض وهذه الجمهرة من الناس تلاحقه حتى سدت عليه المنافذ بعد أن ضربت حوله طوقاً من حديد .. !

كنت أتابع هذا المشهد باهتمام . رأيت الشرطي يأخذ جاداً بيد الطفل الى المركز سائلاً اياه بالحاح : «ماذا نشلت من السيد ؟ . وكان يقصدني أنا بكلمة السيد .

دخلت المركز وقصدت غرفة المأمور ، بينما ظل الناس متجمهرين في الطريق يستطلعون جلية الخبر .

رأيت الطفل كالطائر المذعور يتخبط في يد صياده واذ وقع نظره عليّ هرع نحوي مستعطفاً :

ـ عمي .. خلصني . !

وسألني مأمور المركز هل سرق هذا الحمال مني شيئاً فأجبته بالنفي وأكدت له انه لم يسرق أي شيء من أي شخص .. فقد كان سائراً بصحبتي وكل ما حدث ان قطعة من النقود سقطت من جيبه فالتقطها وركض ..

أطلق المأمور سراح الحمال الصغير فخرج وخرجت من المركز وانفض الناس . واذ ذاك دنا مني الصبي وقال لي بصوت خافت مرتبك :

ـ الله يخلي لك ولدك يا عمي .. خلصتني من الحبس .

فبششت له واستدرجته الى السير معي قائلاً له بلطف ان عليه أن يطلعني على حقيقة الامر . فهذا واجب عليه الآن .

ـ عمي أنا بايگ عشر فلوس . بس وداعتك عمي بعد ما أسويها . !

واذ سألته ممن سرق العشرة فلوس أجابني بما كشف لي عن صورة دامية من صور البؤس والحرمان ! أخبرني ان زوجة أبيه تحتم عليه ، لقاء اعالته فى بيتها ، العمل والتكسب من مطلع الفجر حتى المساء وتسليمها كل دخله .. وقد سوّلت له نفسه مساء أمس أن يحتفظ لنفسه بعشرة فلوس من دخله الذى تجاوز المائة فلس علّه يتوصل بتكرار هذه السرقة على حد تعبيره الى جمع أربعين فلساً تمكنه من الذهاب الى السنما .. وقال لي وهو مضطرب :

ـ عمي .. ترى لو حسّت بي مرت أبوي محّد يگدر يخلصني منيديها . !

وأخذ يتضرّع اليّ بأن أحفظ سره مكتوماً فطمأنته ان السرّ سيبقى مكتوماً بيني وبينه ونقدته درهماً قائلاً له انه

له وحده وبوسعه أن يذهب به الى السنما . ونصحته أن يستمر على الاحتفاظ لنفسه بعشرة فلوس أو عشرين أو ثلاثين فلساً من دخله كل يوم ..

غاب عني الحمال الصغير تعلو وجهه البشاشة والفرح وتطلعت أنا الى ساعتي فاذا بها تشير الى الثامنة .. فهرولت عائداً الى البيت وأنا استعرض فى ذاكرتي ما سمعت وقرأت خلال ربع قرن من الدراسات المستفيضة والتعليقات الخلابة عن وجوب مكافحة التشرد وصيانة النشء وضمان حياة موفورة لهم .. !

* * *

دخلت الدار عائداً من السوق فرأيت العيون تتطلع الى يدي الفارغتين . وتطلعت أنا كذلك فعلت وجهي ابتسامة عريضة وقلت :

ـ صدقوني .. انني معذور . سأقص عليكم مساء ما شاهدت هذا الصباح ..

وتناولت فطوري على عجل وقصدت الى محل عملي وأنا أشد نشاطاً وأوفر حماسة من أي يوم مضى ... !

معلم اللغة

ما تذكرت يوماً حكاية « المعلم عبدالفتاح » البصير الا لامس قلبي ألم خفيف مبعثه العطف الذى هو غاية ما فى استطاعة المرء أن يجود به على أمثال « المعلم عبدالفتاح » فى ساعات محنتهم .

ولئن كان العطف لا ينقذ الموقف أحياناً فهو على الاقل يلطف من هول الصدمة ويخفف من وقع المصاب . لا سيما اذا كانت الصدمة صدمة حب والمصاب مصاب فتل مريع !

أجل انها لقصة أليمة قصة « المعلم عبدالفتاح » هذا الرجل الذى لئن حرمته الاقدار نعمة البصر فقد اختصته ببصيرة مفتحة ، بفكر واع وقلب حساس . ولكم ترددت قبل هذا فى سرد حكايته على أصدقائي خشية أن أذيع أمراً لا يرغب صاحب العلاقة فى ذيوعه ولكن « المعلم عبدالفتاح » نفسه قضى على هذا التردد فقد سمعته أكثر من مرة يقص حكايته على رهط من الملتفين حوله . يقص واقعة حاله بدون تلكؤ أو

تردد . وعندما كان يجد منا آذاناً صاغية ويتلمس فينا العطف الشديد كان يزداد عناية ودقة فى سرد حكايته . اذن فأنا اليوم لا أهتك ستراً ولا أذيع سراً اذا قصصت حكايته بحروفها .

وسأحاول ـ على قدر ما تسمح به الذاكرة ـ أن أسرد الحديث عن لسان بطل القصة وبتعابيره وجمله وكلماته فذلك ، على ما أعتقد ، أصحّ نقلاً وبالتالي أعمق وقعاً .

قال المعلم البصير :

« كانت السنة الماضية سنة سعد وشقاء . تذوّقت فى العشرة الاشهر الاولى منها لذة السعادة التى حرمتها طيلة حياتي الماضية وفى شهريها الاخيرين صحوت وعلى ثغري كأس محطمة وبين جنبي قلب موجع ! يا لتلك الذكرى الحلوة المريرة يوم جاءني صديقي أسعد واسر فى أذني ان عائلة من كرام العائلات تبحث عن معلم يقوم بتدريس ابنتها اللغة العربية ساعة كل يوم واذ سألته عن عمر هذه الابنة أجابني انها فى السادسة عشرة من سنيها وقد أنهت الصف الرابع الابتدائي ولكبر سنّها لم يجد أهلها مناسباً أن تداوم فى المدرسة لأن أخلاق اليوم تختلف عما كانت عليه بالامس .

وعيون الشبان طائشة وقحة .. والمغريات كما يعلم الكل كثيرة ..... والمزالق تعترض كل سبيل .

ـ حسناً وما هي الاجرة ؟

ـ الاجرة دسمة فلا يساورك القلق !

والحق ان مسألة الاجرة كانت عندي النقطة الحيوية فى الموضوع اذ أي شيىء فى العالم يهم عاجزاً فقيراً مثلي كالدرهم يسدّ به جوعه ويستر معايبه ويصد عنه عوادي الزمن .

تمّ الاتفاق على الاجرة وبدأت بمهمتي من غرة الشهر . لقد قمت قبل هذا بتدريس فتيان كثيرين ولكنها المرة الاولى التى أدرّس فيها فتاة . استقبلتني العائلة بترحاب واحترام ـ ومظهري يساعد على الاحترام ولا فخر ـ وقدمت لي الام ابنتها فرحبت بها وقلت لها الامل ان ذكاءك سيساعد على تلقي أرقى دروس اللغة فسمعتها تضحك ضحكة هادئة وتقول: ان شاء الله يا معلمي .

وقضيت اليوم الاول بفحص تلميذتي فاذا بها ضعيفة جداً فى مبادىء اللغة العربية حتى انها لم يكن باستطاعتها انشاء جملة ذات أربع كلمات بدون غلطة أو غلطتين فتأملوا ! !

ومرّ الاسبوع الاول بسلام وسألت اذا كان عليّ أن أحضر نهار الجمعة فقيل لي ان يوم الجمعة سيكون يوم استراحة فقلت حسناً . ولكنني فى الحقيقة شعرت بامتعاض من هذا الانقطاع على قصره . لماذا ؟ هذا ما ستكشفه الايام القريبة .

كانت تلميذتي ذكية ، رخيمة الصوت ، عذبة النبرات . صدقوني يا اخواني انني طيلة الخمس والثلاثين سنة من حياتى الماضية لم أحنّ الى رؤية وجه بشري حنيني الى رؤية وجه تلميذتي . فقد أخذت أشعر نحوها بشعور غامض فسرته لأول وهلة ، واظنه كان تفسيراً صحيحاً ، بشعور « الاستاذية » . ولا غرابة فالتلميذ أقرب الى نفس المعلم من الابن أحياناً .

ومر أكثر من شهر وارتفعت الكلفة بيننا . وفى ذات يوم طلبت مني تلميذتي بشيء من الخجل ، أن أملي عليها أبياتاً من الشعر ، اثنين أو ثلاثة ، على أن تكون من أشعار الحب ! فاهت بجملة « أشعار الحب » بنبرة خافتة ولكنها على خفوتها وقعت على مشاعري وقوع المطرقة .

تطلعت اليها بعيني المغلقتين اللتين لو قدر لهما أن تتفتحا ساعتذاك لابصرتا ولا شك رأساً مطرقاً وخدين من الحياء موردين .

كان لها ما أرادت وأمليت عليها بيتين من أرق ماحفظت من أشعار الحب وبعد أيام رجتني أن يكون الاملاء رسالة نثرية تتضمن عتاباً لحبيب نافر ... يا لله ما هذه الرواية التى تمثل أمامي ... بل ما هذا الحلم ...

منذ ذلك الاسبوع أصبحت قليل الرقاد أحلم بتلميذتي فاذا تمددت على سريري استعرضت ما نطقت به من كلام طيلة الدرس كلمة كلمة واستمدت نغمات صوتها العلوي على مسمعي وحاولت عبثاً أن أترسم صورتها فى مخيلتى . لا شك انها من حور الجنان ... بل انها ملاك هبط من السماء لاسعادي ... رباه أيمكن ذلك ؟. أيمكن أن تحب

مثلي ؟. أنا البائس الاعمى ! من يدري ... ان سهام الحب طائشة تصيب القلوب على العمياء . فلا يسلم منها فقير أو غنيّ ، كبير أو صغير . والقلب اذا أحب لا يسأل لماذا أحب ولمن أحب ؟ انه اذ ذاك ينسى كل شيء ما عدا أن عليه « أن يحب » .

انها تطلب منّي اشعاراً غزلية ، قطعاً ورسائل فى الحب والعتاب والحنين ، لم كل ذلك ؟ ألانها لا تجرؤ على مفاتحتي؟ ربما كان ذلك ، فعليّ أن أصبر قليلاً .

وفى ذات يوم أبرزت لي رسالة من انشائها ورجتني أن أصححها ، أما الرسالة فقد كانت تتسلسل هكذا :ـ

« الى من بيده زمام أمري »
« عندما تسمع زقزقة العصفور صباحاً »
« فاعلم انه يبثك تحياتى وأشواقى ! »
« وعندما تخفق النجوم فى جنح الظلام »
« فهى تريد أن تذكرك بخفقات قلب »
« جريح جاثم بين ضلوعي ! »
« فى أريج الزهرة شذا حبي لك ! »
« وفى خرير الساقية نغمات حنيني اليك ! »

« ان نظرة واحـــدة فى اليوم لا تكفي »
« لهـــذا القلب الجائع الى غـــذاء الحب »
« كن دائماً الى جانبي لاشـعر بالسـعادة »
« الابدية . »

هذه هى الرسالة وهـــذا مضمونها وهى كما ترون فصيحة بليغة ، فماذا أصحح فيها ؟ حرت فى أمرى وتولاني اضطراب لا أخاله خفي عنها . كنت أشعر بأن الارض تدور بي الفضاء وكنت أتصور ان تلميذتى تمد الي ذراعيهـــا تريد تطويقي ، تريد احتضاني بل تريد تقبيلي .

وظللت فى حيرة من أمري لا أدري ماذا أعمـل وماذا أقول ؟ .

أما هى فبادرت تقطع السكون العميق بجملة وادعة :
ـ لا بأس لنترك الرســالة الآن .

وعنـــدما يصل « المعلم عبدالفتـــاح » فى قصته الى هنا يتنفس الصعداء ويجرع فنجان القهوة ـ الذى ظل ينتظر فى يده طويلاً ـ جرعة واحدة ثم يمسح فمه بكمه ويتنحنح قليلاً ثم يقول :

وتمر شـــهور عشرة كاملة وأنا غارق فى بحر من هذا الحب الغريب وتشـــاء الصدف أن تقع فى يدي عن طريق الالتباس احدى رسائلها فاطلع على مضمونها وعلى اســـم الشـخص المخاطب فيها فاذا بالحبيب هو غير هـذا الاعمى البائس واذا بفتاها طالب طب يمت اليها بقرابة بعيدة .

لم يكن ذلك البناء الشامخ سوى رغوات صابون اذابتها شمس الحقيقة فى أقل من لمح البصر . يا للصدمة العنيفة . ان تلك المشاعر المتدفقة التى كانت تسيل على الورق رقيقـة لم تكن لي .. كلها كانت لهـذا الغريم اللعين ، رباه ! من هو هذا ياترى؟ وكيف العثور عليه لصده عن سلب من أهوى.

ظللت طيلة تلك الليلة أهذي هذيان المحموم ثم ثبت الى رشـدي شيئاً فشيئاً وقلت فى نفسي ويحك يا هذا أتطمع ، وأنت البصير المشرد ، بمثل هذا الحب . انك أعنت العاشقين على انماء حبهما وبناء عشهما بما أمليت من أبيات وما حررت من رســـائل وأصلحت من مقاطيع والآن فعليك أن تقف عند حدك بل عليك أن تظل على ما كنت عليه أعمى أصم أبكم.

حسناً قلت فى نفسي فلاجرب .

وفى اليوم التالى ذهبت على عادتى الى دار تلميذتى وكنت أحمل نفسي حملاً وأجرّ رجلي جراً وقبل أن أطرق الباب سمعت الخادمة تقول :

ـ يا عمي عبدالفتاح أمرني سيدى أن أخبرك بأن كريمته اكتفت بدروسها وهو يرجو أن تنقطع منذ اليوم . أما بقية الحساب فسيرسلها اليك مع صديقك أسعد فمع السلامة ... مع السلامة عمي عبدالفتاح ...

ـ مع السلامة .

قلت ذلك بصوت مختنق ورجعت متعثراً بأذيالى شارد الفكر واللب ! .

رحم الله « الدكتور يسري » !

انه كان طبيباً انسانياً يتحلى بالنبل والشمم والعطف والحمية . وينفرد ، فيما ينفرد به من خصال ، بذلك التواضع الذى حببه الى كل من اتصل به من معارف أو زبائن .

كان كريماً معتداً بنفسه دون غرور . اذا قام بعمل ما قال انه قام به ، ولا أورد تعبيره بالنص ، « متحملاً مسؤوليته مائة بالمائة ! » فاذا صادف عمله نجاحاً ابتسم واستبشر واذا أخفق علت وجهه كآبة خفيفة هى كل ما يعبر به عن ألمه وأسفه .

رحم الله « الدكتور يسري » !

كم تألمت ، أمس ، عندما مررت بعيادته فرأيت خادمه « عبدالله » ينزل اللوحة البيضاء عن الواجهة ، تلك اللوحة التى لم يخط عليها أكثر من كلمتين اثنتين هما « الدكتور يسري » وعندما أبصرني « عبدالله » اتطلع اليه اغرورقت عيناه بالدموع ثم ما لبث أن دنا مني قائلاً

بحسرة : « عمي ... من الذى سيعالج أطفاله الكثيرين ؟ » وأشار بيده الى لوحة ثانية صغيرة سمرت الى يمين باب العيادة وقد كتب عليها :

يعالج الاطفال مجانا

من الساعة ٥ الى الساعة ٧

مساء كل يوم

ثم راح يقلع هذه اللوحة من مكانها وهو يتنهد .

لم يكن « الدكتور يسري » طيلة العشر سنوات الاولى من مزاولته مهنة الطب ليعنى بتطبيب الاطفال ولكنه فى السنوات الخمس الاخيرة كرس جانباً مهماً من عمله اليومي لتطبيبهم وراح يغدق على هؤلاء الاكباد المتنقلة على الارض الشيء الكثير من تفكيره بل ومن روحه الفياضة بأنبل الاحاسيس .

كان يحدب عليهم بكل عواطفه ويكافح كفاح الابطال لانقاذهم من أمراضهم . كم من ساعات طوال قضاها الى جانب أسرتهم ، يلاطفهم ويداعبهم . كم كان يركب سيارته فى وقت متأخر من الليل ، قاطعاً بها المسافات البعيدة ، لعيادة

طفل جيء به نهاراً اليه وهو فى حال خطرة ، والاطمئنان من زوال الخطر عنه . وكثيراً ما كان يصرف من جيبه ما يقتضيه توفير الدواء لبعضهم من مبالغ . كان همّه كل همّه أن يشيع الصحة والسعادة فى هؤلاء الاطفال لا ينتظر من وراء ذلك لا جزاءً ولا شكورا ..

وكان تصرفه هذا يسترعي من الناس انتباههم ويكسب تقديرهم كما كان يثير فيهم أحياناً حب التعليق . فمن قائل ان « الدكتور يسري » كان يفعل هذا لان الله لم يمن عليه بطفل فهو ازاء حرمان يحاول اشباعه . ومن قائل انه كان يحنو على الاطفال لانهم فى الحقيقة والواقع أضعف حلقة فى سلسلة مراجعيه من المرضى . ومن جازم بأن «الدكتور يسري» اختص الاطفال برعايته لانه رغب حديثاً فى أن يوسع من أفاق خبرته فى مهنة الطب .. الى غير هذا وذاك من التعليقات .

ولكن أياً من هذه الاقاويل لم يصب الحقيقة ، الحقيقة الرائعة التى كمنت وراء هذا العطف الدافق على الاطفال ووراء هذه المشاعر المشبوبة والكفاح المتواصل فى نطاق خطة رسمها « الدكتور يسري » لنفسه منذ خمس سنوات !

أجل .. ان الحقيقة لم تكن على ما ظن الكثيرون . وبوسعي اليوم ، وصديقي « الدكتور يسري » فى ذمة الله ، أن أتحدث عما عرفت من غريب أمره واكتشفت من غامض سره !

فى مساء أحد أيام الشتاء رنّ جرس التلفون فى دار « الدكتور يسري » وكان قريباً منه فأسرع ورفع السماعة ليجيب المخاطب بلهجة خافتة : « الدكتور خارج الدار . وسيتأخر . »

ربما كانت هذه هى المرة الاولى التى كذب فيها الدكتور طيلة حياته العملية . ان جوابه التلفوني تداعى على لسانه دون انعام أو تمحيص . كل ما كان يشغل فكره آنذاك انه على موعد فى دار أحد الاصحاب لقضاء « سهرة لعب » قصيرة يرفه فيها عن نفسه بعد يوم كله تعب وعناء .. أما وقد آن له أن ينطلق فلماذا يلبي هذا النداء الذى قد يفسد عليه سهرته ويحرمه لذة « البوكر المكشوف » الذى أصبح شغوفاً به فى الاشهر الاخيرة .

لم يتعب ذهنه ، وهو يغادر الدار الى موعد صحبه ، لمعرفة

من عساه أن يكون المتكلم بالتلفون : ذلك الشخص الذى سمى نفسه « عبدالجليل » ... انه يريد الانطلاق ... انه الآن فى واد و« عبدالجليل » فى واد ...

واكتمل عقد الصحب ، وكان خليطاً من الجنسين والتمعت القاعة بالوجوه المشرقة وتلألأ البهو بالثريات المتألقة ، وتبودلت الانخاب والنكات .. وبدأ اللعب ..

وخيل الى الدكتور يسري ان جرس تلفونه يعاود الرنين .. وان صوتاً أجش يقول : « أنا عبدالجليل .. أنا عبدالجليل » من يكون ترى عبدالجليل ؟ وتذكر ، وهو فى غمرة من المشاعر والاخيلة المتدافعة فى فترات اللعب ، ان « عبدالجليل » هو ربّ العائلة التى تسكن الزقاق المجاور لداره وان المريض هو ابن عبدالجليل ، ذلك الطفل الذى لم يتجاوز الخامسة من سنيه . جاء به أبوه أول أمس وهو فى حالة تدعو الى القلق ولكن الأب لم يعد ثانية بولده اليه ... انه الآن فى حاجة اليه .. لا شك فى ذلك ...

وطمست الصورة فى مخيلته وتلاشت معالمها من أمام عينيه وراح يلعب ويشرب وهو صامت ، على غير عادته ، وقال أحد الاصحاب :

ـ « أرى ان الدكتور يسري مهموم هذه الليلة . هل الرزق كان ضئيلاً ؟ .. »

وقال آخر :

ـ « لا أظن ذلك .. انه قد يكون ساكتاً لتركيز انتباهه الى اللعبة ليضمن النتيجة مائة بالمائة .. ! »

وعلت القهقهة وارتفعت الكؤوس متقارعة ولكن الدكتور كان تلك اللحظة فى شغل شاغل . فقد خيل اليه مرة أخرى ان جرس التلفون يرنّ وان جاره « السيد عبدالجليل » يستنجد به .. وألقى نظرة على ساعته فاذا بها تشير الى الحادية عشرة . لقد مرّ عليه هنا حوالي أربع ساعات . ماذا ترى حدث من الامور فى هذه الساعات الاربع ؟ ولماذا لا يبادر الى الطفل على جناح السرعة ؟ وتجسّمت هذه الفكرة لديه ، وغادر القاعة فجأة دون أن يخبر أحداً الى أين يقصد ..

كان البرد شديداً والشوارع مقفرة عندما راح « الدكتور

يسري » ينهب الارض بسيارته واذ قارب بيت « عبدالجليل » وهم بالنزول من سيارته تقدم اليه خفير المحلة وقال له بعد أن سلّم عليه :

ـ «مسكين .. مات قبل لحظة .. الله يعينك يا عبدالجليل !»

أحسّ « الدكتور يسري » كأن نصلاً حاداً أغمد فى صدره فمكث واجماً فى مقعده ثم تطلع الى بيت « عبدالجليل » قليلاً وهو فى حيرة وارتباك ماذا عليه أن يفعل وقد قضي الامر ؟ !

حرّك سيارته ببطء منعطفاً بها الى الزقاق المفضي الى بيته . وكان يسمع بوضوح الصراخ المنبعث من بيت « عبدالجليل » .. انه كان عويلاً يفتت الاكباد !

سارع الدكتور الى غرفته وأوصد بابها عليه ولكن العويل ظل يلاحقه . وارتدى ملابس النوم على عجل واندس فى فراشه ملتحفاً الى ما فوق رأسه .. ولكن العويل ما زال يطرق أذنيه بشدة .. وهو يتعالى .. ويتعالى .. وكانت ليلة رهيبة أطول من دهر .. !

* * *

رحم الله « الدكتور يسري » ، انه كان طبيباً انسانياً معتداً بنفسه وكان يقدر مسؤولياته كطبيب ايما تقدير .

ولقد كان فى السنوات الخمس الاخيرة من حياته الملاك الحارس للاطفال يسبغ عليهم من رعايته وحنانه وروحه الشيء الكثير بل ربما كل شيء .. !

تمرین آن تحب

فرغت من قراءة المقال . وفى هذه المرة لم ترم المجلة بعنف ويأس شأنها كل يوم انما وضعتها بلطف قرب وسادتها ثم مدت يدها تضغط على زرّ المصباح فساد الظلام .

وفى حلكة الغرفة كانت عيناها مفتوحتين يلتمع فيهما بريق غريب . لم تستسلم الى سنة النوم لانها كانت تشعر بحاجة ملحة الى الانتباه والتفكير . عجباً أيمكن أن يكون شقاؤها الملازم قد أشرف على النهاية فتشرق شمس الغد ضاحكة وتقبل السعادة المفقودة لترتمي بين أحضانها .

انه مقال فى « الحياة والحب والجمال » لا مثيل له فيما قرأته قبل اليوم من تلك الفصول المطوّلة . انه قطعة من وجد ، فلذة من قلب بل هو حياة مثلى مصغرة طالما حنّت اليها بعد نكبتها قبل سنتين . ولكن هذا المقال لم يثر من اهتمامها قدر ما أثار منه كاتب المقال . ذلك اللوذعي القدير المتفنن ذو القلم

الساحر الذى استطاع ما لم يستطعه قبله كاتب من اهاجة الجمرات الكامنة فى أعماق صدرها .

فمن هو هذا الكاتب ؟

المقال مذيّل بامضاء ولكن الامضاء لا يشير الى شخصية حقيقية انما هو من تلك الامضاءات المستعارة المبتكرة : « سمير النجوم » ومن هو هذا سمير النجوم ؟ وضغطت على زرّ المصباح فتفجرت الانوار تغمر الظلمة وكانت المجلة فى يدها فجلست متكئة على وسادتها وراحت تطالع المقال ثانية . وهى فى كل فقرة من فقراته تستمهل النظر فتطلق لافكارها الجامحة العنان . لم تعرف « م » كم مرة أعادت تلاوة المقال فى تلك الليلة . ولم يكن ليهمّها أن تعرف ذلك وعندما دقت الساعة دقتين بعد منتصف الليل تذكرت انها آوت الى فراشها فى منتصف الساعة الثامنة .

و « م » من هى ؟

هى تلك الزنبقة التى ما كاد ثغرها يفتر فى الحديقة الغناء فتمتص الندى وتتشرب العصير وتستحم بأنوار الشمس حتى

قطعت عنها الطبيعة مجاري المياه فراحت تشكو العطش وتحذر الهلاك .

هى الزوجة الحسناء بالامس المترعة الكأس سعادة ، الارملة البائسة اليوم الممتلئة الجوانح شعوراً غريباً .

يا للجمال الرائع تلامسه يد الاسى باصابعها النارية . يا للقلب الفارغ بعد امتلاء تتسرب اليه الوحشة والحنين بين الذكريات الوامضة الجميلة الوادعة !

توفي زوج « م » ولما يمر على زواجهما أكثر من عام فخلف شريكة حياته ولا سلوى لها سوى طفلة فى مهدها وذكريات طيبة مشوبة بمرارة الفراق الابدي . من الذى سيبادلها الحديث الحلو ؟ الابتسام ؟ القبلات والعناق ومن سيشاطرها الحياة شهورها وسنيها ؟

أحبت وحيدتها شأن كل أم وأفرطت فى الحب ولكن هذا الافراط ما كان ليخفف من مصابها بشريك حياتها . ومرت الايام والاشهر وتصرم عام وبعضه و « م » تستهدف سهام الحياة فتتألم ذلك الالم الاخرس الذى يجيش فى نفس جريح خانته قواه فما استطاع كلاماً حتى ولا أنيناً .

سل الوسادة عما بللها من دمعها الغزير في ظلمات الليل . سل النجوم عما تصعد اليها من حسرات على أجنحة الرياح وسل المرآة الصافية عما صوب اليها من نظرات حزينة . ومن خلال لآلىء الدموع كانت عيناها تنظران بخيلاء كسير الى الجمال المضاع .

ـ اني ما زلت حسناء ... جاذبيتي ما زالت ثائرة ... وقلبي الفارغ ... هل سيظل هكذا .. ولماذا يظل هكذا ... ؟

تجول هذه الفكر وأشباهها في رأس « م » فلا تلبث أن ترتمي على كرسي قريب وتجهش بالبكاء . فاذا ما دنت اليها طفلتها تصيح «ماما» انقلبت من البكاء للضحك ومن الاجهاش للقهقهة . وبقي شيء لم يتغير هو الالم الممض في قلبها الوديع .

« أريد أن أحب » : الهام غريب هبط على نفس «م» هبوط قطرات الطل على الزهرة العطشى ولامس كل عاطفة من عواطفها ملامسة لفحة الموقد للجسم البارد المصطلي . ولكن أين من تحب ؟ ومن هو ؟ وكيف الحصول عليه ؟

شاب فى مقتبل العمر ، ممشوق القوام ، ضحوك الوجه ، براق العينين جرسي الصوت ، محبوب المعشر ، مثقف ، ذكي ، ذلك من كانت تبحث أو تحاول أن تبحث عنه « م » ليملأ فراغ قلبها الفتي .

ولكن أين تجده ومجتمعها من القساوة بحيث يراقب منها الحركات والسكنات ويحصي عليها حتى أنفاسها . طريقها طويلة شائكة فهل تسير وهى حافية القدمين أم تنكص على الاعقاب ؟

« أريد أن أحب » كانت وحياً هابطاً ما ان له مرد .

بعد تفكير أيام بلياليها وصلت الى ان فى امكانها أن تحب أحد كواكب السنما وكواكب السنما كثيرون تتمتع بجمالهم وأصواتهم فى السنما الناطق كل أسبوع فما عليها الا أن تحب أحدهم مثال روبرت مونتكومري أو كلارك كيبل أو موريس

شـــفاليه أو جاك بوكانان أو رامون نوفارو أو أى كوكب سواهم فتقبل على اقتناء صوره ومشاهدة أفلامه وقراءة أخباره وتتبع كل أثر من آثاره .

وهى فكرة جميلة تخفف من لواعجها ولكنها لا تطفيء أوار قلبها . انها بحاجة الى حب حقيقي لا خيالي فلتبحث عن أمنيتها فى غير هذه السبيل .

لماذا لا تطالع الروايات العصرية التى ما زال أشـخاصها أحياء يرزقون فاذا ما تملك اعجابهـا بطل فلتبحث عنه عساها تتوصل الى معرفته والانتصار عليه فتفوز به وعلى رأسها اكليل كيوبيد والى جانبها عشيقها العزيز المغلوب .

فكرة جميلة جـداً حاولت ان تخرجهـا الى حيز الوجود فقرأت أكثر من خمسـين رواية فلم تظفر بمطمح أنظارهـا وأفكارها فأشاحت بوجهها حزينة ولهى .

وكومضة البرق الخاطف تحت جنح الظلام خطر لهـا خاطر أنست اليه ورأت فيه مخرجاً لها من هذه الحالة الاليمة هو أن تبحث عمن « تريد أن تحب » فى الجرائد والمجلات ـ المحلية منها بوجه خاص ـ ففى هذه الصحف يكتب العشرات

من الكتاب والقصصيين والشعراء فما عليها الا أن تطالعها بانتظام حتى تعثر على ضالتها المنشودة .

مقالات ، قصائد ـ من الشعر المنظوم والمنثور ـ كلمات مأثورة لا يحصى لها عدد . هذا سياسي ، ذاك أديب ، الآخر عالم ، الا انهم كثيرون كثيرون جداً ولكنهم على رغم كثرتهم لم يثر واحد منهم كامناً فى نفس «م» فكانت تطالع ما ينشرونه ثم لا تلبث أن ترمي الصحيفة جانباً يتملكها شعور هو أقرب الى النفور منه الى سواه .

حتى كانت تلك الليلة السعيدة التى وقع نظرها فيها على مقال « سمير النجوم » فى الحياة والحب والجمال فتنفست الصعداء وبرقت أسارير وجهها وخفق قلبها خفقة غريبة لم تستطع «م» تأويلها الا بأنها عثرت على من تريد أن تحب .

والمجلة التى نشرت مقال سمير النجوم أسبوعية كانت «م» تشتريها صباح كل أحد من بائع الجرائد المجاور لدارها أما اليوم فقد كتبت الى ادارة المجلة ترجو أن تعدها مشتركة فى ثلاث نسخ أرسلت بدلات الاشتراك السنوي عنها سلفاً .

وكان نهار الاحد التالي فصدرت المجلة ويالحزن « م » فهى بعد انتظار أسبوع كامل كان أطول من عام لم تقرأ شيئاً لـ « سمير النجوم » ويا لوحشة القلب !

« أريد أن أحب » وحي أخذ يتجسم أثره فى نفس « م » يوماً فيوماً ، باعثاً الامل فى أعماقها . وفى الاسبوع الرابع قرأت ودموع الفرح تترقرق فى أجفانها مقالاً ثانياً لسمير النجوم عنوانه « السعادة ، الزواج والمال » فكان له وقع عميق فى نفس «م» فأعادت قراءته ثانية وثالثة ورابعة حتى أوشكت أن تحفظه عن ظهر قلب .

وفى الاسبوع التالي نشر « سمير النجوم » قصيدة فى ٢١ بيتاً بعنوان « قلبي » كل بيت من أبياتها يسيل رقة وجمالاً فكررتها « م » حتى حفظتها كلها وراحت تتغنى بها صباح مساء .

وظلت « م » تتعقب آثار « سمير النجوم » عشيقها ، مثلها الاعلى ، معبودها فتلتهمها التهاماً ولا تقرأ سواها وفى أحد الايام فكرت مليا فى الامر ورأت ان عليها أن تأتي عملاً حاسماً فى هذا الشأن فتقول لسمير النجوم وجهاً لوجه « اني أحبك، أحبك أيها الكاتب القدير .. أحبك أيها الفتى الجميل ..»

فكيف تصل الى ذلك ؟ وأجهدت فكرها واذا بوحي من حبها يلهمها أن تدعو سمير النجوم برسالة تبعثها اليه بواسطة المجلة لتناول الشاي عندها فى مساء الثلاثاء القادم . ما أبدعها فكرة مصيبة سهلة التنفيذ .

وفى هدوء الليل جلست الى مكتبها تحبر الدعوة الى سمير النجوم وكان القلم يرتجف بين أناملها فتكتب وتشطب وتمزق ثم تكتب وتشطب وتمزق ثم تعود فتكتب وتشطب وتمزق ...

هذه كلمة خشنة .. هذه جملة مفككة .. هذا تعبير غير صحيح .. أخيراً استقرت على أن تكون الدعوة كما يلي :

« أنا احدى المعجبات بكتاباتك الفياضة بالروح أتشرف بدعوتك لتناول الشاي فى داري الواقعة .. فى الساعة الخامسة زوالية من عصر الثلاثاء القادم . أهلاً بك منذ الآن »

قرأتها ثانية وثالثة فأعجبتها عند ذلك وضعتها فى غلاف معطر وكتبت عليه :

الى الكاتب المحترم سمير النجوم ـ بواسطة مجلة ... الغـــراء

وحين استلقت على فراشها أرادت أن تقرأ الرسالة للمرة الاخيرة قبل أن تلتحف فتناولتها وتلتها بصوت عال كأنها تريد أن تتحسس موسيقى نبراتها فصدمتها منها الجملة الاولى « أنا احدى المعجبات » لا .. لا .. لا .. يجب أن تكون هكذا « أنا معجبة الخ .. » لماذا أتحدث اليه عن اعجاب الغير ؟

ونهضت الى مكتبها تعيد تبييض الرسالة وبعد هنيهة كانت على أجنحة الاحلام الجميلة .

* * *

بعد ثلاث ساعات يأزف الموعد . كل شيء منظم بذوق سليم . الاواني ، الطنافس ، الوسائد ، الصور ، فى وسط الغرفة رسم لها كبير يريك ثديها الايمن تغطيه ملاءة حريرية شفافة ،مجموعات الرسوم الفنية ، الراديوغرامافون ، السجاير، العطور . ما أعظمه يوماً فى التاريخ .

لم يبق سوى ساعتين

لم يبق سوى ساعة ونصف

ساعة واحدة فقط .. ثلاثة أرباع الساعة .. نصف ساعة .. ربع ساعة .

ما لقلبها يدّق سريعاً سريعاً ؟ ما لها لا تستطيع الثبات على المقعد ؟ انها تروح وتغدو كأن فى صدرها ناراً تحركها .

بقي عشر دقائق .. تسع .. سبع .. خمس ..

وأحسّت بقلبها كأنه يريد أن يتحرك من مقره وبصدرها يعلو ويهبط .. وبأفكارها وأنظارها زائغة لا تستقر على قرار .

تن .. تن .. تن .. تن .. تن

دقت الساعة الخامسة فطرق الباب على الاثر فهرولت تستقبل سعادتها المنتظرة . فتحته قليلاً وهي تقول بصوت عذب متقطّع :

ـ تفضل

فدخل سمير النجوم يتوكأ على عصاه .. كان شيخاً تجاوز الستين ، محدودب الظهر ، غائر العينين ..

ـ مساء الخير سيدتي

ـ تفضل .. !

وأومأت اليه بأن يدخل غرفة الاستقبال وركضت الى غرفتها فارتمت على فراشها تبكي بكاء الاطفال !

«ياقوتة الفرات» ... انه لاسم جميل، أليس كذلك؟ ولماذا لا يكون جميلاً غاية الجمال ، موسيقي الجرس ، سحري الوقع ؟ لماذا لا يكون كل ذلك وأكثر من ذلك لدي أنا على الاقل ؟

سأظل أذكر « ياقوتة الفرات » وسأظل أحنّ الى مشاهدتها ، الى تسريح النظر فى جمالها وقسماتها وألوانها وعينيها ، عينيها الواسعتين . انها الصورة الحية التى ستظل تمثل أمامي كلما خلوت قليلاً الى نفسي .

واليوم ، اذ يجذب صحو النهار ولذعة البرد الخفيفة الملطفة بأشعة شمس الشتاء اعداداً كبيرة من الناس الى ساحة السباق ، أراني مدفوعاً باحساس غريب الى ارتياد الساحة ، لا لأراهن كما فعلت فى يوم مثل هذا اليوم من العام الماضي، انما لأبحث هناك عن «ياقوتة الفرات» عساي أظفر منها بنظرة عابرة !

أصبحت الايام الجميلة تبعث فى نفسي نشوة غريبة هي الى الانقباض أقرب منها الى أي احساس آخر ، لانها تذكرني بذلك اليـوم الجميل الذي خلق مني ومن « ياقوتة الفرات » بطلين لقصة قد تكون ممتعة بنظر عدد من الناس !

حدث ذلك فى يوم كهذا اليوم الجميل من العام الماضي اذ اصطحبني صديقي « ن » الى ميدان السـباق حيث اعتـاد المراهنة وحيث اعتدت قضاء فترة من الوقت للاستجمام من عناء أسبوع راتب والاستمتاع بمشاهد السباق المثيرة .

أفواج من النـاس لاتحصى ، فيهم الرفيع والوضيع ، الغني والفقير ، سيدات وأوانس ، أجانب ومواطنون ، قرويون من الارياف ومدنيون من قلب العـاصمة ، قبعات وسداير ، « چراويات » و « عگل » .. انه لمجمع المتناقضات بل بحرهـا المتلاطم !

كم كان يعجبني أن أتطلع الى هذا الخلق ، وكم كنت أسخر فى نفسي من هذا الاندفاع الغريب الى احراز المجهول من المال عن طريق هو ، على قصره ، شائك خطر .

ها هي الامواج البشرية أخذت تتدافع لترتطم بشبابيك بيع بطاقات المراهنة :

ـ اعطني رقم ٧ « ون » و « بليس » .

ـ الاربعة ٣ « ون » ...

ـ الثمانية « ونين » ...

ـ السبعة ٧ « ونون » ...

أصوات تحكي الهمس ولكنها سريعة ، وأيد تمتد لتتسلم بطاقات الحظ يكمن تحت سنابك الخيل .

وهناك المشهد الرائع الأخاذ اذ تظهر الخيل تتبختر فى حلقة العرض قبل بدء الشوط ومن ثم تأخذ مسيرها خبباً الى الميدان ، يعلوها فرسان خفاف بحلل هي قوس قزح فى أزهى ألوانه .

كم كان يعجبني أن أتطلع الى الجماهير الغفيرة تتجه زرافات ووحداناً صوب السياج لتراقب انطلاق الخيل . هاقد بدأ الشوط فاشرأبت الاعناق وتطلعت الابصار ، مجردة ، أو

من خلال النواظير . وكلما قاربت الخيل نهاية الشوط تعالت في الجو صيحات المتفرجين لا سيما المراهنين منهم .. « عبلة ... هلال ... عيوني ستوري ...وينك مهيدي ... » صراخ وصيحات متداخلة متدافعة تتعالى من كل مكان ، سدائر وكوفيات يرمى بها الى أعالي الفضاء تحمساً واندفاعاً ... وتبلغ الخيل خط النهاية ويتضح المجلي منها فالمصلي فالمسلي وتخفت الاصوات بسرعة وتشخص الانظار مترقبة مقسوم الربح ! تتكرر هذه المشاهد ، وأنا أتطلع الى صورها بشوق ولهفة ، وأتساءل أحياناً : ترى ماذا يحرك هذه الجموع على هذا الشكل ؟

وفي فترة الشوط الاخير قلت في نفسي لماذا لا أجرب هذا الاحساس بالذات ، احساس هؤلاء المراهنين اذ يترقبون ما يأتيهم به الطالع من عالم الغيب ، لماذا لا أراهن مرة في الحياة لأختبر ذلك بنفسي ؟ لا شك في ان صديقي « نون » سيسرّ بذلك لانه كثيراً ما طلب اليّ أن أراهن على بعض الخيل الموفقة .

ـ العب رقم ٣

همس ذلك فى أذني وراح يقطع بطاقاته أما أنا فلم يرقني هذا الرقم .

قلت فى نفسي لماذا أربط حظي بحظوظ الآخرين ؟ لأراهن على الرقم ٩ لان هذا الرقم محبب الي . ولا يهمني بعد هذا أكان الآخرون يشاركونني اللعب أم لا ؟ وعسى أن يغفل الكل هذا الرقم ، اذن فالنتيجة ستكون باهرة ... وربما هائلة ...

وتطلعت الى منهاج السباق لأقرأ اسم الفرس ذات الرقم ٩ فاذا به « ياقوتة الفرات » ... يا للغرابة ، انها «ياقوتة» ومن « الفرات » حيث فتحت عيني للوجود وحيث نعمت بأجمل الايام .. يا للمصادفة الغريبة .. لا شك فى ان القدر يخبيء لي هذا اليوم شيئاً من مفاجآته .

وقصدت حلقة العرض ، وبحثت عن « ياقوتة الفرات » لأراها رأي العين ، فاذا بها فرس شقراء يزين جبهتها كوكب أبيض ، جميلة الشكل ، خفيفة الحركة . دنوت أتطلع فاذا بـ « ياقوتة الفرات » تدير عنقها الجميل نحوي وتتطلع بعينيها الواسعتين الي ... يا لله .. ما هذا ؟ انها تنظر الي ... انها تقول لي هيّا راهن بما لديك ..

وهرولت ، ولربما ركضت ، انني لا أتذكر ذلك بالضبط الى شباك البطاقات واشتريت بطاقة « ون » بخمسة دنانير كانت كل ما أسعفني به الجيب . وعدت ادراجي أتطلع الى لوحة تسجيل البطاقات المبيعة فاذا بأرقام « ياقوتة الفرات » لا تتجاوز بضع عشرات وكم كنت أتمنى ألا يرتفع عدد بطاقات « ياقوتة الفرات » رغم ضآلته ، بل كنت أشعر ان أية بطاقة أخرى تباع على الرقم ٩ انما تكون بمثابة استلاب مبلغ من نقودي أنا بالذات .

وسارت مراسيم الشوط سيرها المعهود ووجدتني فى وسط المعمعة ، شعرت بفوران غريب فى دمائي وأحسست وكأن قلبي ضاعف دقاته ... وعلى غير ارادة مني كنت أصيح : «ياقوتة .. ياقوتة ..» ولكن صوتي ضاع بين ألوف الاصوات كشهقة فى ساحة معركة فاصلة !

ثم خفتت الاصوات وهدأ الزلزال كعادته ... فاذا بالمجلي الرابح هو غير « ياقوتة الفرات » . ! وجمت مع من وجم من ألوف اللاعبين وأطرقت مهموماً .

لا أتذكر كم بقيت هكذا حتى طرق سمعي رنين جرس

أعاد الي انتباهي ،قلت ما هذا ؟ مع علمي انه جرس الاعتراض فأجابني شخص كان بجانبي « أوبجكشن على الفائز الاول »

تهلل وجهي وعادت الدماء تسري فى عروقي حارة ورحت أترقب بفارغ الصبر نتيجة الاعتراض على المجلي وقرار المحكمين ... يا لله لقد صدق ظني وحقق القدر ما توقعت ، فقد قرر المحكمون ان « ياقوتة الفرات » هي الفائزة الاولى ..

تملكتني سورة جنونية من الفرح وتطلعت الى اللوحة لأطالع ان مقسوم ربح البطاقة الواحدة على « ياقوتة الفرات » هو ٤٥٠ درهماً أي ان دنانيري الخمسة ستحصل على ٤٥٠ ديناراً وأخذت أصفق وأنادي لتحي «ياقوتة الفرات» . انطلقت راكضاً الى شباك البطاقات لا ألوي على شيء ، وهناك .. هناك فقط تذكرت انني ، ويا لسوء تصرفي أو طالعي أو سمّه ما شئت ، قد مزقت البطاقة قبل برهة وفور ظهور النتيجة الاولى ..

وقفت مصعوقاً .. ثم تمالكت روعي .. ورحت أركض صوب السياج حيث كنت واقفاً قبل هنيهة وانكببت أبحث عن قطع البطاقة الممزقة .

كانت أكوام كثيرة من البطاقات الممزقة مبعثرة هنا وهناك ، رحت أنقّب بينها باحثاً عن الرقم ٩ ... ظللت أبحث وأبحث .. كم طال بحثي ؟ لا أتذكر بل لا أدري حتى انتبهت على صوت أحد حراس الساحة يقول لي :

ـ عمي نريد نغلق الباب .

اذ ذاك هرولت مسرعاً فلحقت بآخر سيارة باص غادرت باب الساحة . وعندما ارتميت منهوكاً على أحد مقاعدها وأغمضت عيني لاحت لي ،ويا للروعة ، تانك العينان البراقتان الواسعتان ، عينا ، ياقوتة الفرات ، .. !

الرقصة المنتظرة

قلما استعصى خلاف بينهما ، فوديع زوج ينظر الى الحياة نظرة فلسفية خاصة ، وهو يرى ان ليس فى الوجود ما يستحق أن يفرق بين زوجين قطعا من عقدهما الخامس نصفه أو كادا . قد تخطيء الزوجة وقد يغلو الزوج ، قد تبدو الزوجة حمقاء فى عمل ما وقد يبدو الزوج صلفاً فى الرد على مثل هذا العمل، قد يفرّق بينهما صباح أو مساء ، نهار أو ليل ، لسبب مهم أو غير مهم ولكن وديعاً يرى ان كل هذه أمور هي من التفاهة بحيث يجب أن تتكسر على صخرة الحياة الزوجية .

وهكذا مرت السنوات تباعاً : خلاف ووفاق ، كدر وصفاء ، صخب وهدوء . وهما بعد كل هذا وذاك زوجان راضيان عما توفر لهما من أسباب الحياة .

غير ان مشكلة واحدة لم يحلا عقدتها بسهولة بالرغم من مرور سنة وبعض السنة على اثارتها للمرة الاولى وهما منها حيث كانا : كل متمسك برأيه لا يتنازل عنه .

وفى مساء أحد الايام عاد وديع الى بيته وعلى عادته كانت أول كلمة قابل بها زوجته : « مساؤك جميل يا عزيزتي » فأجابته بصوت خافت « مساؤك جميل » وأسرعت الى غرفة النوم .

علم انها كانت تبكي لمدة قد تكون طويلة لانه رأى الدمع يترقرق فى عينيها عندما ردت عليه بالتحية وهى تشيح بوجهها عنه . ولا شك في انها الآن مرتمية على سريرها تذرف ما تبقى فى محجريهما من دموع .... اذ ذاك أحس الزوج بألمٍ عميق وبحيرةٍ

موجعة . ماذا يعمل ؟ أقدر لهما ان يستمرا على هذه الحال النكدة لخلاف هو بحد ذاته تافه لا يستوجب مثل هذه التضحية بالصفاء العائلي . ألكونها « تريد أن ترقص » ولكونه « لا يريد أن يرقص » تنهمر هذه الدموع الغالية من عيني من

أحب وعاشر وشارك كل هذه السنين .. يا له من رجل عنود بل يا له من زوج مغفل يترك سفينة حياته العائلية نهب العواصف والاعاصير وهو بامكانه ، بلحظة واحدة ، أن يدير دفتها الى شاطىء من السلامة أمين .

واستعرضت مخيلته ما تقضّى من حياة حافلة بشتى الالوان نسجت خيوطها أيديهما . تذكر أويقات الصفاء وسويعات الغرام ، تذكر الابتسامات والقبل والعطف والحنان وقال لنفسه : « ويك ؟ أتضحي بكل هذا... أتضحي بالماضي وتضحي بالحاضر لانك لا تريد أن ترقص ...؟ » لا شك فى انها الآن قد بللت وسادتها بالدموع الساخنة ، يا للآلىء الغالية تتساقط هدراً .. فليسارع اليها وليكفكف هذه الدموع ويتنازل ولو قليلاً عن عناده عسى أن يحل التفاهم ويسود السلام .

وبعد لحظة كان الاثنان يتناقشان فى موضوع الخلاف بغية ايجاد حل سريع . فحفلة « البالو » الكبرى موعدها غداً . والعائلات القريبة والصديقة ستحضرها وهما كذلك سيحضرانها . أمن المعقول أن تكون هى دون اترابها ، هى دون

سائر الاوانس والسيدات ـ وحتى العجائز ـ رهينة كرسيها ، لاترقص بينما الكل يرقصون ٠ ؟

ـ قلت لك يا وديع انني أريد أن أتمتع بالحياة لان مثل هذا التمتع حق من حقوقى ٠ لماذا تعلمنا الرقص سوية قبل سنتين؟ ألاجل أن نرقص مرة واحدة فقط ثم ننزوي فى بيتنا ٠؟ لا ٠٠ لا يا وديع انني ما زلت شابة على رغم هذه الشعرات البيض التى جلبتها لي خدمتك والسهر على راحتك وراحة بنيك ؛ أجل انني قد جاوزت الاربعين وهذا لا يعني انني يجب أن أقبع فى بيتي كما ينكمش القنفذ على نفسه ٠ آه ليتك قرأت ما كتبه أحد علماء الاجتماع عن رأيه فى أن المرأة تبدأ حياتها الحقيقية فى الاربعين ٠ انني أريد أن أحيا ٠٠ واتمتع ٠٠ واسعد ٠٠٠٠

ـ هذا حقكِ الذى لا جدال فيه ٠ وأنا عندما لا أبدي الرغبة فى الرقص لا أحاول اضطهادكِ أو غمط حقوقكِ أو فرض أرادتي عليكِ ٠ كل له حقوقه ٠ من حقكِ أن تنشدي السعادة فى الرقص ومن حقي أن أنشد الراحة فى عدم الرقص ٠ أنظري الى الرقص نظرتكِ الى أطيب أماني

الحيـــاة ودعيني يا عزيزتي أنظر اليه نظرتي الى الالعاب الصبيانية التى لا طائل تحتها .

ـ أليست أقوالك هذه وليدة الرجعية .. ؟

رجعية .. ؟ أتحسبينني رجعياً عندما لا أريد أن أرقص ؟ قد يكون لكِ بعض العذر فى ذلك ، ولكن ماذا تقولين عني اذا سمحت لكِ أن تراقصي فى حفلة الغد أياً كان من معارفنا .. أ أكون رجعياً .. ؟

كان الزوج يتكلم بنبرة هادئة تتمثل فيها الرزانة والجد فانبسطت أسارير الزوجة بعد انكماش وقالت بشيء من الاستحياء والاعتذار :

ـ أشـــكرك .

وعلى هـذا رقد الزوجان ناعمي البال رقاداً لم ينعما بمثله منذ أمد بعيد .

* * *

وكان موعد الحفلة المنتظرة ، واكتظت ردهة الرقص بالراقصين والراقصات . جلس المدعوون والمدعوات حلقات ، حلقات ، يسودها جو من المرح والأنس الا حلقة واحدة

كان يشوبها شيء من القلق تلك هى المائدة التى جلس حولها وديع وزوجته وبعض معارفهما من الجنسين .

لقد حاولت أن تكون على أجمل مظهر مستطاع فقضت قرابة ساعتين أمام مرآتها تتزين وتتزين وتتزين . لا شك فى انها الآن بين هذا الجمع الغفير من أرشق السيدات ، واكثرهن جاذبية .. أجل لا شك عندها فى ذلك .

وكان جو الحفلة معطاراً فالى جانب أزهار الحديقة كانت تعبق عطور « الريفدور » و « الشيرامي » و « السوار دي باري » من كل مكان فتتمازج لتكوّن هبات من النسائم الساحرة . وكانت كؤوس الخمر تتقارع بين أدخنة التبغ الشفافة لتزفها الأيدي الى الشفاه المتعطشة . ثم ما هى الا لحظات حتى راحت الموسيقى تعزف انغامها للراقصين والراقصات ...

انقضت ساعة من العمر وانتهى معها عدد من جولات الرقص والزوجة تتطلع الى زوجها تارة والى ساحة الرقص أخرى . ولكنها لم يكن باستطاعتها الاعتراض او الشكوى ، كانت ترى الخصور الرشيقة تنساب الى اليمين لتستدير نحو

اليسار او تنساب الى اليسار لتستدير نحو اليمين أو تندفع الى الامام لترتد الى الوراء كل ذلك فى حركات مكهربة تلامس القلوب بأصابع خفية ، كانت ترى الراقصين وقد أشرق على وجوههم الانشراح والراقصات وقد تلألأت على ثغورهن الغبطة ، هذا يضاحك تلك وهذه تحادث ذلك حديثاً هو الى الهمس أقرب منه الى الكلام . كانت ترى الحياة كلها ترقص أمامها على نغمات مثيرة ساحرة .. الا ها .. انها مسمرة الى كرسيها . انها كتلة بشرية مهملة لا يتقدم أحد ليراقصها .

واستمرت الحفلة فياضة ، مشرقة ، صاخبة . واستمر الجميع يرقصون شتى الرقصات من « تانجو » ناعس مثير الى « فالز » لاهب سريع الى « رومبا » و « كونجا » صاخبتين مدغدغتين . الى .. الى .. كانت الدنيا ترقص حواليها حتى الكراسي والموائد والكؤوس كانت تتمثلها ترقص كذلك الاها والا كرسيها ومائدتها وزوجها فقد ظلت وظلوا فى جمود مميت .

واذا بحسرة تخرج من فيها طويلة تصاعدت معها آمالها

المعسولة هباءً فى الفضاء . يا لها من شقية لم يطلب مراقصتها أحد من الشباب أو من الكهول ، ان هذا لمنتهى العجب !

وتطلعت الى زوجها وقالت له باشمئزاز : ان أصحابه الرجال الحاضرين فى هذه الحفلة هم قليلو الذوق والادب والمجاملة بحيث ان كلمة « رجل » اسمى من أن تطلق على أى واحد منهم .

فابتسم الزوج بعطف وطمأنها قائلاً : ان صديقه الفتى الاسمر الجالس بقربها سيراقصها فى الدورة القادمة وكأن غمامة أخذت تنقشع شيئاً فشيئاً عن جبين الزوجة التى راحت تنتظر بفارغ صبر دورة الرقص التالية . وشغل هذا الانتظار كل جارحة من جوارحها حتى انها لم تكلف نفسها عناء التساؤل عما حمل هذا الصديق الاسمر على أن يطلب مراقصتها بعد كل هذا السكوت أجاذبيتها له أم رأفته بها أم رجاء من الزوج الحائر ؟

وانتهت الرقصة الدائرة ولكن الرقصة التالية لم تبدأ لأن الجوق حزم آلاته وانصرف . وانفرط عقد السهرة بعد رقص منهك ملذ طويل .

تمر بحياة المرء مشـــاهد لأناس كثيرين ، تطوي الايام منها ما تطوي ، وتعي الذاكرة منهـا ما تعي . وليست الاحاديث المثيرة كلها تتناول أشخاصاً ذوي شأن ، فلرب قصة لها قيمتها بين القصص المروية لا يعدو بطلها أن يكونَ شخصاً من هؤلاء الاشخاص الذين اعتدنا أن نشاهدهم كل يوم فلا يستأثرون من اهتمامنا لا بالكثير ولا بالقليل .

و « أبو فتحي » ـ وليس مهماً أن أذكر لك اسمه بالذات ـ هو من هاتيك الشـخصيات العـابرة التى مرت على هامش حياتي . ولو لم تكن لقصتـه مع ولده « فتحي » ذلك الاثر الذى يعاود ذاكرتي بين حين وآخر لمـا رأيتني الآن أحاول تسجيل هذه القصة بكل أمانة ... وكما اطلعت عليها دون تنميق ولا تعليق .

كان يحب ولده ووحيده « فتحي » حباً جماً . وكان جلّ

مطمحه فى الحياة أن يراه رجلاً متزوجاً ، موفور الصحة والمال والبنين .

ـ « البنون يا « أم فتحي » زينة الدنيا فعندما يتزوج ولدنا ويرزقه الله ابنه البكر فسيسميه حتماً باسم والدي [عبدالمنعم..] »

فتجيبه زوجته :

ـ « حقق الله أملك وأطال عمرك لترى ذلك اليوم السعيد .. »

كانا زوجين طيبي القلب ، قنوعين بما رزقهما الله ، يعيشان فى حاضر هادىء ناعم ويحلمان بمستقبل أهدأ وأنعم .

وكلما خطا الابن « فتحي » سنة من عمره زاد الأب تنعماً بما لديه وتحمساً لقرب موعد السعادة المنتظرة !

وظل الجو صافياً ، لا ضباب ولا غبار ...

وحدث ذات يوم أن أوفد « فتحي » الى احدى عواصم الغرب لاكمال دراسته العالية وقبل انتهائه من الدراسة وافت أخبار الى أبويه تنبيء بأنه اعتزم الزواج من فتاة أجنبية تعرّف اليها فى محيطه الجامعي ، فثارت ثورة الأب ، وحنق ، وطيّر لولده جواباً بالنفي قاطعاً .

ومرّت فترة قصيرة واذا بالاخبار تفيد هذه المرة ان الابن قد تزوج من صاحبته . فكانت رجّة ما مثلها رجّة ، وكانت أزمة نفسية أخذت بخناق الأب !

ومن هنا بدأ القدر يخطّ صفحة جديدة فى حياة الزوجين .

ومن هنا أخذ تباين الافكار والنظرات يظهر بين « أبي فتحي » و « أم فتحي » فبينما أصبح الأب حانقاً ، غاضباً لفعلة ولده كانت الأم تلازم هدوءها وهى تحاول أن تجد لابنها عذراً علّها بذلك تهدىء من روع زوجها .

ـ « عبث .. قلت لك عبث ما تحاولين . انه حطّم قلبي ... أضاع أملي .. مزّق سعادتي .. أيتزوج من أجنبية . ؟ وبدون رضاي . ؟ يا له من ابن عاق .. سأموت ولن يسمع صوتي .. أو يرى وجهي ثانية لاني لا أريد ... ولن أريد رؤيته .. لا أطيق رؤيته .. لا أطيق ... »

ويأخذ صوت « أبي فتحي » بالارتفاع ويتهدّج تأثراً فترتاع زوجته وتحاول تهدئته :

ـ « هل هو الابن الوحيد الذى قام بمثل هذا العمل ... ؟ أما كنت تقول ان الابن اذا أكمل الثامنة عشرة فقد أصبح

ولي نفسه وحاكم أمره ... وماذا ترى سينتج عن فعلته اذا أصررت على تسميتها « فعلة » .. ؟ »

ـ « لست بحاجة الى مواعظك السقيمة ... قلت لك انه خيّب أملي وكفى ... لا أريد نقاشاً ... سيحيا هو وستحيين أنت وستشاهدان كلا كما نتائج هذه الفعلة ... وستعترفان ولكن بعد فوات الوقت بان الشرق شرق والغرب غرب ... أما أنا فسأموت .. سأموت وفي قلبي حسرة .. » ويخفت صوت «أبي فتحي » وتتثاقل نبراته فتطرق زوجته حيرى والدمع يترقرق في عينيها !

ظل الزوجان على هذه الحال من القلق والالم ، هذا يتأفّف ويتحرّق ، وهذه تؤاسي وتتأسى ، حتى بلغ اضطرابهما الذروة يوم طلبت « أم فتحي » من زوجها أن يصحبها لاستقبال ابنهما « فتحي » الذى سيصل وزوجته المطار ظهراً ...

ـ « ماذا عليك لو حضرت .. ولو من بعيد .. »

ـ « لن يكون ذلك ... لن يكون ذلك .. فان ألححت عليّ أكثر من هذا فانني ، قسماً بالله ، سأمنعك أنت عن الذهاب ! »

فلاذت أم « فتحي » بالسكوت وراحت تشاغل نفسها ريثما يحين وقت مغادرتها البيت الى المطار .

وقبيل موعد وصول الطائرة قصدت الام الى المطار صحبة بعض الاهل ، وعند مغادرتها الدار لحق بها الزوج الى العتبة ليقول لها :

ـ « اياك أن تتأخري فى العودة ... دقيقة واحدة تكفي وزيادة لمواجهة ابنك المطيع ... النبيل ... الشهم ... »

توارت الام وظل « أبو فتحي » نهب الاحاسيس المتأججة . استعرض تاريخ مأساته الدامية هذه ، تذكر « فتحي » طفلاً ويافعاً ، تذكره مريضاً ومعافى . تذكر حلمه الجميل بفتحي ... سيكبر ولده وسيتعلم ... سيحصل على أعلى مراتب العلم ... سيكبر « فتحي » ويتزوج وسيرزقه الله بنين هم زينة الدنيا ... ولسوف يسمي بكره بعبدالمنعم ... آه ما أقسى الأيام ... بل ما أقسى ولده لقد أحال جمرة حياته رماداً ذرّه فى الهواء .. يا للابن العاق ... يا للجحود ...

وكانت الدقائق تمرّ ثقالاً . وكأن الواحدة منها ساعة بل يوم بل دهر . وخال ان زوجته قد أبطأت عليه .. لماذا

أبطأت ؟ هل هي متواطئة مع ولده ؟ يا ويحها من زوجة ويا للساعة الرهيبة !!

وترك البيت وكأنه مسير مدفوع ، واستوقف سيارة صاح بسائقها : « الى المطار » عجّل الى المطار ! »

ونزل « أبو فتحي » فى ساحة المطار وسار باحثاً لا يدري ماذا سيفعل . كان يبحث زائغ العينين حتى انه مرّ بولده « فتحي » وزوجته فلم يلفتا نظره . حتى ألفى نفسه وجهاً لوجه أمام « أم فتحي » وكانت تحمل طفلاً لم يبلغ العام . طفلاً وسيم الطلعة ، مشرق الوجه يحرّك يديه الصغيرتين وهو يثغو ثغاء الحمل ... شخص بعينيه الى الطفل وهو يقترب من زوجته ، دنا وهو يتطلع مبهوتاً ليسمع « أم فتحي » تقول له :

ـ انه عبدالمنعم ... انه نعومي ..

وكالطائر المنتفض تحت قطرات المطر مدّ يديه آخذاً حفيده وراح يقبله بحنان وهو يجهش بالبكاء . !

عندما كنت في سن ولدي

استوقفني ولدي وأنا أغادر البيت مساء وطلب الي ان ألقي نظرة على قطعة انشاء مدرسية كتبها على طلب معلمه فبادرته قائلاً :

ـ حسناً سأطالعها . انما اياك أن تطلب الي تصحيح أخطائها . ان تلميذاً مثلك فى الصف السادس الابتدائي يجب أن يعتمد على نفسه فقط عندما يعرض كتاباته على معلميه . فقابلني بضحكته المعهودة وألقيت نظرة على انشائه فاذا بي أطالع قطعة أخلاقية عنوانها « آزروا الفقراء » يحاول فيها تحليل حكمة أملاها على صفه مدرس الإنشاء وهذه الحكمة هي : « من آوى فقيراً فقد كسب أجراً كبيراً »

فرغت من قراءة القصة وأعدت الورقة الى ولدي وقد بدت على وجهي امارات لم يفقه لها معنى .

ـ أراك كمن يفكر عميقاً يا أبتاه ..

ـ لا شيء يا بنيّ .. انشاؤك حسن لولا بعض الجمل الركيكة . أعد النظر فيه أنت قبل تقديمه الى المعلم .

وتركت الدار ، وأنا شارد الفكر ، وقصدت النادي حيث انتحيت مكاناً قصياً عن الحاضرين وأطلقت لفكري العنان ليستعيد ذكريات بعيدة ترجع الى ما قبل ربع قرن وتزيد ، الى يوم كنت فى سنّ ولدي لا همّ لي الا الكتاب والمدرسة . ولا قدوة لي الا أبي والمعلم .

ألا ما أغرب المصادفات ! انه كان موضوعاً أشبه بموضوع اليوم ان لم يكن هو نفسه ، فقد طلب الينا يومذاك معلم اللغة العربية أن نكتب فى موضوع ايواء الفقير واطعام الجائع واكساء العريان وما زلت أتذكر كيف ان المعلم كان يشرح لنا البحث بقوله « يا أولادي عندما تكتبون فى هذا الموضوع يجب أن تعبروا عن أخلاق مستمدة من أعماق نفوسكم ، لا أريد مجرد كلام . ان عليكم أن تقرنوا الاقوال بالاعمال »

يا لها من ذكرى أخذت صورها تتراءى أمام عيني كأني أشاهد فلماً سنمياً . فقد حدث لي ، غداة كتابة ذلك الموضوع واستيعابه بعد أن شرح المدرس أهدافه ومراميه ، ان أبصرت

وأنا عائد الى البيت مساءً طفلاً فى العاشرة من عمره جلس القرفصاء على رصيف الشارع وقد شحب وجهه وهزل جسمه وتمزّقت ثيابه ، أبصرته يتطلع الى المارة دون أن ينبس بكلمة على غير ما نعهده فى الفقراء المتسوّلين . دنوت اليه فحدجني بنظرة حزينة خرساء ناطقة .

وهنا ارتسمت أمامي نصائح المعلم واحدة واحدة والحاحه علينا بوجوب اقران القول بالعمل فما كان مني الا أن خاطبت الطفل الشريد :

ـ اتبعني لتنام فى بيتنا وسأبقيك عندنا طويلاً تأكل وتلعب .

ففغر المسكين فاه غير مصدق ما سمعت أذناه وقام متعثراً وتبعني وهو يتمتم بكلام لم أفهم منه سوى كلمة « الله يطوّل عمرك »

لم نسر طويلاً حتى وصلنا الشارع الذى تقع فيه دارنا واذا بي ووالدي وجهاً لوجه وقبل أن يسألني عن رفيقي بادرته :

ـ انه فقير مشرّد ، فهل لديك مانع أن يسكن معنا ردحاً من الزمن ؟

فبدت امارات الاستغراب على وجه أبي وقال بلطف :

ـ ولكنك تعلم يا ولدي ان دارنا ضيقة ، ومهمة ايواء المشردين لا تقع على كواهلنا نحن ، دعه يذهب فى سبيله ..

قال هذا وأخرج قطعة نقود ناولها لرفيقي وودعنا واثقاً من انني لا أخالف له رأياً .

وجدتني فى مأزق حرج بعد هذه الصدمة ولكنني لم أيأس وقلت فى نفسي : لماذا لا آخذ بيد هذا الفقير الى دار معلمنا الفاضل ، وهي تقع فى الشارع المجاور لشارعنا ، لا شك فى أنه سيرحب بايوائه لانه رجل صالح وقد كان صباح اليوم على جانب عظيم من التحمس لموضوع ايواء المعوزين .

اصطحبت الصبي وأنا أشجع نفسي وأقوي من عزمي حتى بلغنا دار معلمي فطرقت بابها من غير تردد طرقاً خفيفاً فلم أسمع جواباً . تواصل طرقي وتعالى واذا بالنافذة تفتح ويطل منها رأس امرأة تسأل :

ـ ماذا تريدان ؟

ـ أريد معلمي داود أفندي

ـ انه مشغول فى تصحيح أوراق الانشاء . فهل شغلك ضروري ؟

فأجبتها بلهجة استعطاف :

ـ ضروري جداً . قولي له تلميذك .

وقبل أن أتم كلامي اختفى الرأس وأغلقت النافذة . وبعد لحظة فتح باب الدار واذا بي أمام معلمي وهو يرتدي « دشداشة » فضفاضة .

سلّمت عليه فبادرني بالسؤال : ـ هذا أنت هنا ؟ماذا تريد؟

فأجبته بخجل : ـ المعذرة يا سيدي .

وسكت لحظة وأنا أردد نظري بين رفيقي ومعلمي الذى ما لبث أن قال وهو يتلمس ذقنه :

ـ قل . تكلم. لا تتردد فأنا مصغ اليك.فقلت بصوت هادىء :

ـ وجدت هذا الفقير المشرد تلفظه الطرقات والازقة فوددت ايواءه فى دارنا ولكن أبي لم يشأ ذلك فهل لك يا سيدي أن تقبله فى دارك لوقت قصير حتى أقنع أبي بقبوله عندنا ؟

فعلت الدهشة وجه معلمي وبلع ريقه وقال بتلعثم :

ـ هذا طلب جميل .. أقدرك عليه ولكن بيتنا يضم اليوم عدداً عديداً من الضيوف قدموا الينا على غير انتظار .

وهنا حدث أن هبت ريح عاتية باردة فما كان من المعلم الا أن توارى وراء الباب بعد أن أغلقه وهو يقول :

ـ الطقس بارد جـداً . ارجع الى بيتك عاجلاً يا بني لئلا تصاب بالرشح !

لم أستطع أن أقول كلمة وكل ما شعرت به آنذاك ان الارض تدور بي الفضاء فشجعت نفسي وقويت من عزمى وادخلت يدي فى جيبي واخرجت كل ما كان مدخراً لدي من نقود . ثم التفت الى رفيقي وقلت له على عجل :

ـ خذ هذا . وعد الى مكانك قبل أن يطبق الليل .. !

فراح الفقير يتعثر بين الحزن والفرح وعـدت أنا الى البيت كمن استيقظ من حلم غريب !

القصص الضائع

كنت فى مكتب صحيفتي منكباً على كتابة مقال لعدد الاسبوع عندما نقر الباب نقراً خفيفاً . وقبل أن يسمع الطارق أذناً مني بالدخول دفع الباب برفق ودخل محيياً هاشاً باشاً كأن له معي معرفة قديمة .

تطلعت الى القادم ، وانا أومىء اليه بالجلوس ، فلم أتذكر انني شاهدت هذه السحنة من قبل . هو شاب فى أوائل العقد الثالث من سنيه ، حسن الهندام ، طلق المحيا ، تدلى المنديل من جيبه الصدرى والتمع شعر رأسه بدهان عبق الرائحة . قال لي مقدماً نفسه :

ـ ن.. د.. من خريجي الثانوية ، القسم الادبى ، لهذا العام .

ـ تشرفت ، هل من خدمة مطلوبة ؟

فاستل من دفتر كان يحمله بيده بضعة أوراق وقدمها لي قائلاً :

ـ قصة عراقية واقعية كتبتها خصيصاً لمجلتكم .

فشكرت له اهتمامه بمجلتي ووعدته بقراءتها ونشرها اذا كانت تستحق النشر !.

ـ كل رجائي يا سيدي ان تطالعها الآن فان كانت أهلاً للنشر فقدمها للطبع فى العدد القادم والا فأعدها لي وأشكرك .

رأيتني مضطراً الى النزول عند رغبة القصصي الفتى فأخذت أطالع قصته باناة حتى اذا ما وصلت الى آخرها كان صبره قد نفد فعاجلني سائلاً :

ـ كيف وجدتها ؟

ـ آسف جداً ..

ـ هل من أخطاء فى القواعد أو اللغة ؟

ـ كلا .. لا شيء البتة من هذا القبيل ، انما أسلوبها وموضوعها مضطربان .

ـ هاتها اذن ..

كنت منتظراً أن يأخذ منه التأثر مأخذاً بعيداً شأن البادئين من الكتاب فى سنه فاذا به قد حافظ على ابتسامته وهدوئه

وودعني على أمل أن يقدم لي فى موعد قريب قصة ثانية يرجو أن يكون فى انشائها أكثر توفيقاً .

فى اليوم التالي زارني الفتى يحمل قصة ثانية عنوانها « نفس ثائرة » فلم تكن أوفر نصيباً من سابقتها . والحق انني آلمني أن أرفض قصته فى هذه المرة كذلك ولكن رفضي هذا لم يكن بدّ منه . وغاب يومين آخرين وفى اليوم الثالث قدم لي قصة ثالثة عنوانها على ما أتذكر « حب طائش » فكان شأنها شأن أختيها .

فى هذه المرة قرأت على وجه صاحبي مزيجاً من امارات الحيرة والامتعاض والألم وعندما قام يصافحني مودعاً قال لي :

ـ سيكون غيابي عنك هذه المرة طويلاً ولكن القصة التى سأحملها لك فى المرة القادمة ستكون موضعاً لاعجابك . الآن عرفت ماذا تريد . انك وقراءك تريدون شيئاً مقتطعاً من الحياة .. من صميم الحياة .. هذا شيء ضروري . فالى الملتقى ..

ـ الى الملتقى . سأسر دائماً بزيارتك .

وكانت غيبة طويلة أوشكت أن أنسى فيها حادثة الفتى . وفى صبيحة الجمعة الماضية اذ كنت أطالع صحف الصباح نقر

الباب نقرتين فقلت تفضل فاذا بالداخل صاحبنا بعينه فتبادلنا التحية كصديقين حميمين وبدأت بالحديث باسماً :

ـ أهلاً بك وبالقصة التى تحملها فى جيبك لا شك فى أنها ستحل مكاناً بارزاً من صحيفتي .

وكان لي من الوقت ما سمح بأن أمعن النظر فيه فاذا بي أراه هذه المرة هادئاً هدوءاً كثيباً ، حاد النظرات تبدو على وجهه امارات تفكير مكبوت . سكت قليلاً ثم قال بصوت خافت :

ـ لم أحضر هذه المرة بشأن قصة أطلب نشرها انما حضرت راجياً منك خدمة خاصة تسعدني كثيراً اذا أديتها لي .

وتطلع كمن يريد أن يثق من خلو المكان وأردف :

ـ ذلك عهد مضى وانقضى عهد القصص والمقالات ، وها نحن اليوم تجاه الحقائق الملموسة ، نحن اليوم فى تيار الحياة الزاخر ، وما التفكير فى القصص ـ بنظري على الاقل ـ سوى ضرب من الجنون ..

ـ وماذا فى امكاني أن أقدم لك من خدمة ؟

ـ خدمة جلى قد يكون من الميسور عندك تقديمها لي ..

ولكن عليّ أن أحدثك أولاً حديثاً خاصاً قد يطول ، فهل لديك متسع من الوقت ؟ بل قبل كل شيء هل أنت عند حسن ظني بك ؟

فابتسمت ابتسامة التطمين فتنفس الصعداء وأردف :

ـ أجل ان عليّ قبل مفاتحتك بما جئت من أجله أن أحدثك بما حدث لي في الفترة الاخيرة، ولا شك في انك ممن يحتفظون بالسر يأتمنهم عليه أصحابهم فاسمع .

وبرغم انني لم أكن أتوقع سماع أمر ذي بال فقد شعرت بشيء غير قليل من حب الاستطلاع وطويت الصحيفة التى كانت بيدي استعداداً للاصغاء فبدت علائم الارتياح على وجه صاحبي وراح يحدثني بملء حريته :

ـ تتذكر يوم غادرتك للمرة الاخيرة ، لقد استصغرت ساعتئذ شأني وقلت في نفسي بئست مدرسة يعجز خريجها عن كتابة قصة تقرأ . واعتزمت أن أبحث عن موضوعي في صميم الحياة ، وأن أصور أبطال قصتي من الواقع . والحقائق أحياناً أغرب من الخيال فلماذا لا أبحث عنها حتى أعثر عليها .. واجتاحتني رغبة ملحة ملكت عليّ مشاعري فكان لا يهدأ لي

بال . أهملت حالي ونسيت انني كنت موعوداً بوظيفة فى احدى دوائر الحكومة وان عليّ أن أراجع مميز الدائرة وأقدم له كتاب توصية ثانيـــة من شـخصية معروفة ، نسيت كتبي ودروسي ومجلاتي ومثل أمام عيني شيء واحد فقط هو كتابة قصة من صميم الحياة .

وفى هذه الموجة الصاخبة من الفكر تذكرت ان صديقي . م ، الذى تخرج معي من المدرسة قد وقع فى حب غانية من فنانات المراقص . لم أكن واثقاً من صحة هذه الرواية وهل وقع صديقي فى الحب أم لم يقع . انما لم يكن لدي شك فى انه ممن لا يترددون فى المجازفة . مسـكين ، شعرت نحوه بعطف فى أعماق نفسي ، شعرت بأنني أرثي له . حسناً لماذا لا أبحث عنه وأدرس حاله . لا بد ان حديثه ذو شجون وان حادثته مما يستحق التسجيل .

ألا فليكن صديقي بطلاً لقصتي المنشـودة ، ولأبحث عنـه .

وفى المســاء قصدت المرقص . كنت بطيء الخطوات متردداً ولكنني ما لبثت أن اجتزت البـاب وسرت لأصافح

صديقي بعد أن اخترقت صفوفاً من الموائد . كان الجاز صاخباً والجو مخموراً والدخان الخفيف المعطر يملأ الصالة بروائح تثير المشاعر ، كانت القدود تتماوج في لجج الفالز فتدنو وتنأى والصدور تعلو وتهبط ... يا للساعة الرائعة .

واستقبلني صاحبي بتودد جم فقلت له :

ـ أراك وحدك ..

ـ وهل يهمك ذلك . انها ترقص هناك . تتطلعت الى حيث أومأ فأبصرت قواماً لدناً ، وخصراً نحيفاً وطلعة ساحرة .

ـ انها ملاك ساحر .. ذات الفستان البنفسجي ..

ـ يا لك من أبله ، قلت لك هناك .

فلم أعره التفاتاً وظللت أتطلع باغراق واعجاب الى الفنانة

البنفسجية حتى اذا انتهت الرقصة وعلا التصفيق صحوت على نفسي فاذا بصديقي يضحك مني ضحكاً عالياً .

وقدّمني الى صاحبته وكانت رومانية تلغط بقليل من الانكليزية فتحادثنا حديثاً قصيراً . ورحت أسجل فى فكري حركات صديقي وسكناته ودعاباته مع فاتنته . وقلت فى نفسي ان مطلع القصة يَمّ عن انها ستكون ذات شأن فلا تمالك روعي .

وسكت قليلاً وتنهد تنهيدة حاول اخفاءها وأردف قائلاً :

ـ ولكن روعي كان فى مكان آخر ، كان حائماً حول الفنانة الاخرى ذات الثوب البنفسجي التى جلست لوحدها على مقربة منّا . كانت رزينة الحركات ، عميقة النظرات ، ألقت عليّ نظرتين فى فترتين من الزمن ، لا أظنها تعمدتهما شعرت بقلبي يتزحزح ورشقتني بابتسامتين صغيرتين فأحسست برأسي يدور بي الفضاء . وأشحت عنها بوجهي وعضضت شفتي مؤنباً نفسي : ما هذا الحمق ؟ ان عليّ أن أتتبع فصول قصتي لأضمن النجاح هذه المرة .

وأصبحت زبوناً مداوماً فى هذا المرقص ، على الرغم من انني لم ألاق صديقي بطل قصتي المنشودة الا نادراً ، ورأيتنى

فى وضع يتطلب مني أن أتعلم الرقص « الفوكس تروت » و« الوان ستيب » و« الفالز » على الاقل . فتعلمتها فى أقل من عشرة أيام ! حقاً ان هذا لأمر عجيب . صدقني يا عزيزي ان دروس الرقص كانت سهلة المنال جداً بل كانت ادعى الى ارتياحي وشوقي من أي درس تلقيته فى حياتي .

لا أريد اطالة حديثي ، فلقد يكون فى ذلك ازعاج لك . أتقنت الرقص وراقصت ذات الثوب البنفسجي ، شعرت بأنفاسها تداعب وجهي ، وصدرها يلامس صدري ، نعمت بهمساتها الموسيقية تسكبها فى أذني ، شممت العطر الفواح من اردانها .. يا لله لم يحضرني كلمة أقولها لها اذ ذاك سوى ان قلبي أسرع فى خفقانه فكنت أرقص مدفوعاً لا دافعاً ، كانت هى التى توجه خطواتي لأنها شعرت بارتباكي .. وعند انتهاء الدورة قلت لها بصوت لا أظنها سمعته : « أشكرك » وقصدت مكاني ناسياً ان علي ايصالها الى كرسيها . اعتذرت منها فى الرقصة الثانية عن تقصيري فابتسمت متحببة وتوثقت أواصر الصداقة بيننا . لم أنقطع ليلة عن المرقص لأنني جربت مرة أن أتغيب عمداً فلم يغمض لي جفن تلك الليلة !

هل وقعت فى شرك حبها ؟ لا أظن ذلك فانني صلب

الفؤاد ، قوي الشكيمة ، ولكنها الرأفة بحال هذه الفنانة البائسة تغمرني بمثل هذا الشعور . قد تسميه أنت عشقاً ، سمه ما شئت فهذا لا يهمني ، ما دمت أشعر بسعادة قربها .

ـ وصديقك ماذا تم من قصته ؟

ـ حقاً انني لا أعلم ماذا طوحت به الطوائح . فهو ما عاد يزور المرقص ، قد يكون أفلس أو سافر لا أدري .. كما ان أمره ما عاد يهمني .. فحسبي ما أنا فيه .

وسكت هنيهة مطرقاً ثم نظر اليّ باستعطاف وقال :

ـ أخبرتني أمس والدمع يترقرق في عينيها ـ آه من عينيها الساحرتين ـ ان أمانة العاصمة بلغتها بوجوب مغادرة القطر عند ختام اجازتها في نهاية هذا الشهر لانها لا ترغب في تمديدها .. أرأيت هذا الظلم. أرأيت الاعتداء انني أتوسل اليك أن تنتقد في صحيفتك هذا الاسلوب في معاملة الفنانات اللواتي يسبغن على الحياة هذه المسحة من الجمال والذوق . انتقد الامانة بمرارة عسى أن تعدل عن قرارها بشأن صاحبتي.. تأكد ان سفرها معناه القضاء عليّ ... ان سفرها معناه التفريق الابدي بيننا لانني لا أملك اليوم ما يعينني على السفر صحبتها .

وهنا نهض يريد توديعي وقبل أن يسمع مني جواباً على طلبه قال لي :

ـ ستكتب .. ستقدم لي هذه الخدمة ، ستنقذ حياتي فأشكرك ..

كانت هذه الواقعة أجمل قصة أتحفني بها هذا القصصي الضائع ولأنه لم يخطها قلمه كتبتها أنا كما رواها لي بالحرف الواحد !

بطاقة معايدة وقصة

لست ممن يعنون ببطاقات المعايدة . فخلال العشرين سنة الماضية ، على ما أتذكر ، لم أبعث بواحدة منها الى أي من أصدقائى أو عملائى ، حتى انني أحياناً كنت أنحي على نفسي باللائمة لعدم مبالاتي بهذا الامر ولكنني أعود فأبرر موقفي بقولي ان بطاقة تهنئة مع غلاف وطابع بريد لأعجز من أن تعبر عن مشاعر صديق لصديقه . فان كان ارسال مثل هذه البطاقة أمراً تقتضيه المجاملة أو العادة فأنا لا يضيرني أن أتأخر عن الركب فى مثل هذا المضمار ...

وقد عرف أصحابي عني هذا الامر فأخذ عدد من يبعثون الي ببطاقات التهنئة يقل عيداً بعد عيد حتى سجل « الصفر » منذ زمن بعيد .. !

وحدث لي فى العيد الاخير أمر يسترعي الانتباه . فقد حمل الي البريد بطاقة معايدة كلفتني ثلاثة دراهم « عيدية » تافهة قدمتها الى موزع البريد فحققت له أمنية ربما كان يمني

نفسه بتحقيقها ! . ولكن من هو يا ترى مرسل هذه البطاقة ؟ .

أخرجتها من غلافها فاذا بها تهنئة خطت باليد على الجهة اليسرى بينما طبع على الجهة الاخرى رسم لشجرة جرداء الا من بعض وريقات علقت ببعض غصونها وفى القمة من جذعها حطّ طائر جميل اتجه رأسه الى السماء . صورة جذابة زاد فى روعتها ما أضفى عليها المصور من ألوان . وكانت التهنئة مذيلة باسم « سالم ... » .

سالم ... ومن هو سالم هذا ؟ .. ورغم ان البطاقة تحمل اسم والده كذلك الا انني لا أتذكر ، من بين أصدقائي ، من يحمل هذا الاسم . ترى من يكون هذا الصديق المنسي ؟ وبذلت جهداً غير قليل لأتذكر ... حتى اسعفتني الذاكرة فقلت لنفسي هازئاً : ويك ... كيف تنسى ذلك الفتى الذي رافعت عنه فى قضية من أطرف قضايا الجزاء ؟ كيف تنسى سالماً ذلك الفتى الذي نوديت لانقاذه من موقف غريب بل مأزق حرج زجّ فيه بنفسه وهو لم يتخط العشرين من عمره ؟ أجلّ انه سالم الذى أسجل قصته اليوم وأمامي بطاقة معايدة وصلتني منه على غير انتظار ! .

كان ذلك قبل نحو عشر سنوات . دقّ جرس التلفون

فى مكتبي واذا بالمتكلم صديق حميم لي يطلب منى بالحاح أن أتوكل عن فتى يسكن بجواره ، اتهم فى قضية جزائية تتعلق بالآداب العامة . قلت لصاحبي ولكنني لا أميل الى التوكل فى قضايا كهذه فأبان لي عن بعض تفاصيل الحادث وأكد أن هذه القضية ستثير اهتمامي وان الفتى لجدير بالرأفة .

وحرت فى أمري وتساءلت كيف يكون فتى كهذا جديراً بالرأفة ؟ انه تحرش بجارته الفتية بالكلام أولاً ، ثم ، اذ نهرته ، عاجلها بقبلة على رغمها . أليس عمل كهذا من أبرز الادلة على الوقاحة وانعدام الأدب ؟ لكنني رغم كل هذا توكلت عن الفتى وأوليت قضيته اهتمامي وما زلت أذكر فيما أذكر ذينك اليومين فى تاريخ مرافعاتي . ففي الجلسة الاولى اقتصر الحاكم ، وكان حاكماً ألمعياً جدياً عرف بسعة اطلاعه فى سايكولوجية الاجرام الى جانب تضلعه من القوانين العقابية ، على التسجيلات التمهيدية من تعيين هوية المتهم وسماع تفاصيل الشكوى وأخذ افادة الشهود . وهنا علي أن أذكر احدى مفاجآت الدعوى فعندما أراد الحاكم سماع شهود الاثبات طلب المتهم بنفسه الكلام فأذن له الحاكم فقال :

ـ شهود ؟ ولماذا ؟ انني معترف بذنبي .. ان الشهود

يسمعون فى حالات كهذه عندما يكون هناك انكار .. انني معترف يا سيدي .. معترف بقبح جرمي ...

وتطلع الحاكم من منصته الي كأنه يستطلع رأيي فى موقف موكلي وساد قاعة المحكمة صمت مبعثه الدهشة من كلام المتهم . فقلت :

ـ ومهما يكن فأنا التمس سماع الدفاع ..

فهز الحاكم رأسه موافقاً وقال وهو يشير الى كاتب الضبط :

ـ الى صباح الاربعاء القادم لسماع الدفاع واعطاء القرار .

* * *

وكان صباح الاربعاء . ووقف سالم فى قفص الاتهام . وجلست أنا الى جهة اليمين بينما جلست فى الجهة المقابلة الآنسة المشتكية وبعض ذويها ونائب الادعاء العام . وكان جو المحكمة يسوده شيء من التوتر وكثير من الترقب لما سيقوله الدفاع وما سيقرره الحاكم .

قلت مشيراً الى موكلي :

ـ ليس هذا ، يا سيدي الحاكم ، بالفتى الشرير أو الشرس أو الوقح . ولئن اعتبر ما قام به من عمل دليلاً على الشرة والشراسة والوقاحة فالاعمال الاندفاعية أحياناً ، لا سيما التى ننظر اليها نظرة سطحية أو نأخذها على علاتها ، لا تعبر تعبيراً صحيحاً عن الرغبات الحقيقية الدافعة اليها . ان موكلي فى اتيانه العمل ـ ولا أقول فى ارتكابه الجرم ـ الذى سيق من أجله الى محكمتكم الموقرة لم يكن مدفوعاً بقصد جرمي . انه كان فى عمله هذا ضحية من ضحايا السنما ...

فسرت فى القاعة همسات المستمعين وتطلعت المشتكية باستغراب وسأل الحاكم :

ـ وما دخل السنما فى الامر ؟ ..

ـ ان دخل السنما فى هذا الامر لكبير يا سيدي الحاكم . فالفتى الماثل أمامكم كان يحلم بالساعة التى يتاح له فيها أن يطلب يد الفتاة التى يعتقد انها تليق به . وشاءت المصادفة أن يتعرف الى جارته الآنسة المشتكية فيعجب برزانتها ويتمثل فيها فتاة أحلامه حتى تملكه نحوها حب سد عليه المنافذ .

ولحظت ان الفتاة المشتكية كانت تتطلع الي باهتمام وعند سماعها كلمتي الاخيرة أطرقت حياء وتابعت أنا دفاعي :

ـ فتى مهذب وساذج ، هذا الذى يقف أمامكم فى قفص الاتهام . كان جد خجل من مفاتحة أي شخص بما يشغل حواسه ويملأ جوانحه . كان حائراً فى أي الطرق يتبع ليتقدم الى فتاة أحلامه ويطلب يدها .. حتى كان الدرس المشؤوم الذى تلقاه ذات ليلة من أحد الافلام . فقد كانت عقدة القصة فى الفلم الذى شاهده صاحبنا تدور حول فتى فاجأ فتاة أحبها بحديث غرام فصفعته على جرأته فما كان منه الا أن هاجمها بقبلة خاطفة انتهت بعناق طويل افضى الى الزواج ...

وهنا علا الضحك من جوانب القاعة واشترك فيه الحاكم والمشتكية وأنا .... وكان سالم مطرقاً خجلاً فتابعت وأنا أشير اليه :

ـ أنظر اليه ، سيدي الحاكم ، هل هذا الفتى من الاشرار الذين اعتادوا أن يقفوا بين يديك لجرائم مبعثها سوء الخلق ؟ انه ، كما ترى ، « ضحية السذاجة » و « سوء التلقي » و « خطأ التطبيق » . . !

وجلست .. وأنا أشعر بأن التوتر الذى ساد القاعة فى

البداية أوشك أن يتلاشى حتى ان المشتكية نفسها فارقها ذلك التجهم الذى لازم وجهها فى بدء هذه الجلسة وطيلة الجلسة السابقة .

ورفع الحاكم الجلسة لبضع دقائق ثم استؤنفت لافهام القرار الذى كان يقضي بحبس موكلي شهراً واحداً مع ايقاف التنفيذ .

* * *

استعرضت هذه القصة وأنا أتطلع الى بطاقة المعايدة التى حملها الي ّ بريد العيد وتذكرت آخر ما تذكرت خروجي من قاعة المحكمة وأنا متأبط ذراع موكلي سالم وكيف ان الآنسة المشتكية حدجتنا بتلك النظرة الغامضة وهى تبتسم ابتسامة خفيفة لم أدر أكانت تحدياً لي أم عطفاً على موكلي المسكين .. !

جميع الحقوق محفوظة

١٩٥٥/١١/١

فى زحام المدينة

فهرس

	الصفحة
تصدير	٣
الدمية المهشّمة	٥
الحمال الصغير	١٣
معلم اللغة	٢١
الدكتور يسري	٣١
تريد أن تحب	٤١
ياقوتة الفرات	٥٣
الرقصة المنتظرة	٦٣
أبو فتحي	٧٣
عندما كنت فى سن ولدي	٨١
القصصي الضائع	٨٩
بطاقة معايدة وقصة	١٠١

كتب مطبوعة

للمؤلف

١ - الحصـــاد الاول : احدى وثلاثون قصة عراقية

٢ - قصص من الغرب
٣ - وليم تل (مسرحية) } مترجمة
٤ - أربع قصص صحية

سوف للطبع قريبا

مجموعة اشـعار للمؤلف

892.73:Sh
شاول، انور
في زحام المدينة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038184

892.78
Sh542fA
c.1